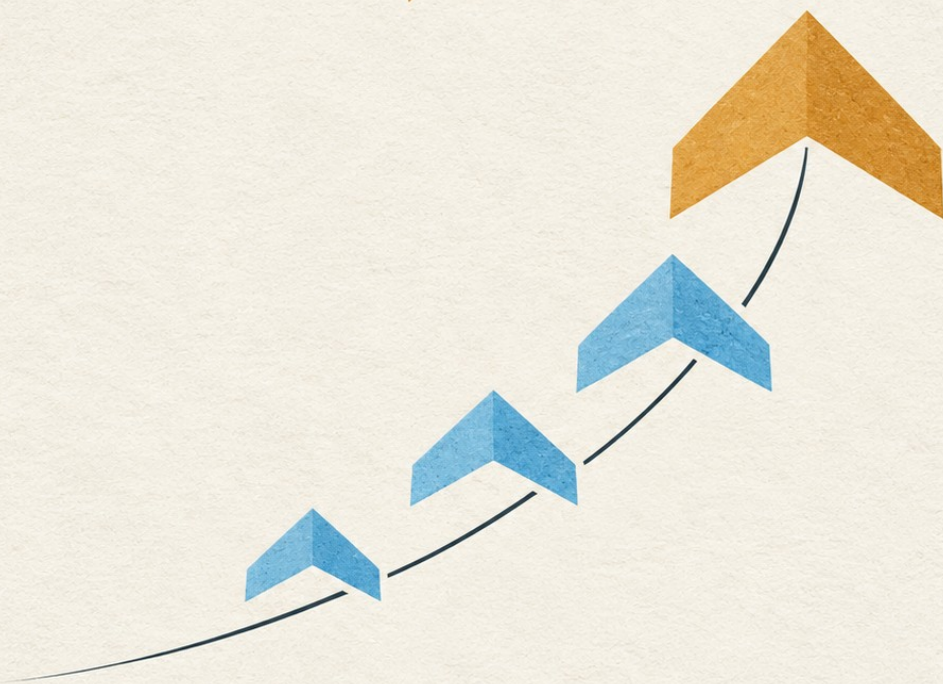


حتى تستقيم النفس

المجلد الثاني

العبادات ومعالم الاقتداء



مدارج

حَتَّى تَسْتَقِيمَ النَّفْسُ

المجلد الثاني

العبادات ومعالم الاقتداء

الصبر والمجاهدة والمداومة في صناعة الإنسان المنضبط

== مدارج

مجلدات السلسلة

المجلد الأول: بناء النفس وتربيتها

في معاني الصبر والمجاهدة والمداومة، وتربية الأسرة، واختلاف المسؤولية والقدرة في مراحل العمر.

المجلد الثاني: العبادات ومعالم الاقتداء

في انتظام العبادة، وما نتعلمه من هدي النبي ﷺ وأخبار الأجيال الأولى في العلم والعمل.

المجلد الثالث: الحقوق وبناء المجتمع

في حقوق الناس والأسرة والعمل، والمسؤولية المشتركة، وما تضيفه الدراسات المعاصرة ضمن حدودها.

المجلد الرابع: برنامج الاستقامة العملي

في اختيار مجال للتطبيق، وتعلم المهارة، ومتابعة الأداء، ومراجعة التعثر والاستمرار.

يمكن قراءة المجلدات بالترتيب، أو الرجوع إلى الموضوع الذي تحتاجه. وللتطبيق اختر حقًا واضحًا ومجالًا محددًا؛ فدورة البداية القصيرة وبرنامج الأسابيع الاثني عشر مساران مقترحان، ولا يلزم جمع مدتيهما.

الفهرس

٢	مجلدات السلسلة
٤	إهداء
٥	الفصل الأول: الصلاة: وقت واستعداد وأداء
١٢	الفصل الثاني: الطهارة والنظام دون وسواس
١٨	الفصل الثالث: الصيام: امتثال عند البدء والانتهاء
٢٥	الفصل الرابع: الذكر والقراءة والأوراد
٣١	الفصل الخامس: قيام الليل والرفق والمداومة
٤٩	الفصل السادس: الزكاة وأمانة الأداء
٦٥	الفصل السابع: الحج: الزمان والمكان والجماعة
٨٥	الفصل الثامن: كيف يصل أثر العبادة إلى المعاملة؟
١٠٥	الفصل التاسع: يوم من هدي النبي في التعليم والعمل
١٢١	الفصل العاشر: الصحابة وتقسيم المسؤوليات
١٣٨	الفصل الحادي عشر: الصحابة بين العزيمة والاقتصاد
١٤٩	الفصل الثاني عشر: التابعون وصيانة العلم
١٥٨	الفصل الثالث عشر: مدارس التعلم في القرن الثاني
١٦٧	الفصل الرابع عشر: ابن المبارك: أعمال متوازنة وأثر ممتد
	
١٧٦	الفصل الخامس عشر: القرن الثالث وضبط التعليم
١٨٧	الفصل السادس عشر: قراءة أخبار الزهد بميزان صحيح
١٩٦	الإحالات والمراجع

إهداء

إلى من عرف الطريق، ثم أتعبته العودة إليه؛ وإلى من ازدحم يومه بالمسؤوليات حتى صار يؤخر حق نفسه وحق من يحب؛ وإلى من يبدأ بحماسة، ثم يستحي من محاولته التالية لأنه لم يتم التي قبلها.

هذا الكتاب لك، ولنا معك. نحتاج جميعًا أن نتعلم كيف نحمل أنفسنا على الخير من غير أن نظلمها، وكيف نعطي العمل حقه من غير أن نضيع به حقًا آخر، وكيف نثبت حين تخفت الرغبة ويبقى الواجب.

وإلى أب وأم يعلمان صغيرهما أول صلاة، وإلى معلم يصبر على تلميذه، وإلى إنسان يجاهد في أمر لا يراه الناس، ثم يقوم في صباح جديد ليحاول مرة أخرى.

نسأل الله أن يهدينا لأحسن العمل، وأن يرزقنا فيه الصدق والرفق والثبات. واذكرونا، ووالدينا، ومن أعان على وصول هذا الكتاب إليكم، بدعوة صالحة.

هذا الكتاب وقف لله تعالى.

تأليف وتوزيع مدارج.

الفصل الأول: الصلاة: وقت واستعداد وأداء

الصلاة عبادة لله قبل أن تكون وسيلة لتنظيم اليوم. ولها وقت وصفة وطمأنينة؛ فلا يكفي أن نحشرها في فراغ يبقى بعد العمل، ولا أن نحولها إلى بند سريع في قائمة الإنجاز.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: ١٠٣]. وفسر الطبري «موقوتًا» بالفرض المؤقت الذي جعل له وقت يؤدي فيه.¹ معنى ذلك للقارئ مباشر: اعرف موضع الصلاة في يومك قبل أن تملأه كله، وتعلم أحكام الوقت والرخصة من مصادرها، ولا تجعل أدواتك التنظيمية حكمًا شرعيًا جديدًا.

الوقت حق لا فراغ متبق

روى عبد الله بن مسعود رضي الله عنه النص الآتي:

«سَأَلْتُ النَّبِيَّ ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: الصَّلَاةُ عَلَى وَقْتِهَا. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ: ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ. قَالَ: ثُمَّ أَيٌّ؟ قَالَ:

1 محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة النساء، الآية ١٠٣؛ معنى «كتابًا موقوتًا» وترجيح الفرض المؤقت

الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. قَالَ: حَدَّثَنِي بِهِنَّ، وَلَوْ اسْتَزَدْتُهُ لَزَادَنِي».²

الصلاة ليست ما يتبقى من اليوم. من عرف أن اجتماعاً أو سفرًا سيعبر وقتها، رتب ما يستطيع قبل أن تضيق اللحظة، وسأل عن الحكم إن تغيرت حاله.

الاستعداد لا يكون بعجلة اللحظة الأخيرة

قال أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ:

«إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ فَامْشُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا».³

بدأت الجماعة، ومع ذلك لم يجعل النبي ﷺ العلاج ركضاً يذهب بالسكينة. موضع التصحيح غالباً أسبق: أن يترك المرء ما بيده في وقت مناسب، ويتوضأ ويتهياً، ثم يقبل ما فاتته ويتم صلاته كما أمر.

2 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم الحديث ٥٢٧

3 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم الحديث ٦٣٦

ومن الاستعداد إزالة ما يشغل البدن شغلاً شديداً. قال ابن أبي عتيق:

«تحدثت أنا والقاسم، عند عائشة - رضى الله عنها - حديثاً وكان القاسم رجلاً لحانة وكان لأم ولد فقالت له عائشة ما لك لا تحدث كما يتحدث ابن أخي هذا أما إني قد علمت من أين أتيت . هذا أدبته أمه وأنت أدبتك أمك - قال - فغضب القاسم وأضرب عليها فلما رأى مائدة عائشة قد أتى بها قام . قالت أين قال أصلي . قالت اجلس . قال إني أصلي . قالت اجلس غدر إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لا صلاة بحضرة الطعام ولا وهو يدافعه الأخبثان»⁴.

ليس في هذا إذن ب صنع عذر متكرر، بل تنبيه إلى أن من الحكمة ألا يبدأ المرء وجبة طويلة أو مهمة جديدة قبيل الصلاة ثم يدخلها وجسمه وعقله في صراع ظاهر.

⁴ من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، رقم الحديث ٥٦٠، الرواية أ

تعلم الصفة ثم أدها

روى مالك بن الحويرث رضي الله عنه:

«أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتْقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عَشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا، أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا، سَأَلَنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرْنَاهُ، قَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظُهَا أَوْ لَا أَحْفَظُهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْبَرُكُمْ».⁵

في القصة تعليم بالمشاهدة، ثم رجوع إلى الأهل وتعليم لهم. لا يكفي حسن النية إذا بقيت صفة العبادة مجهولة. ويتعلم الطفل والكبير الصلاة برؤية صحيحة وشرح واضح، لا بالأمر المجرد ولا بالشك في كل حركة.

⁵ من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، رقم الحديث

الطمأنينة من نفس الأداء

روى أبو هريرة رضي الله عنه:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ. فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تُصَلِّ، ثَلَاثًا. فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسِنُ غَيْرَهُ فَعَلَّمَنِي. فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمَئِنَّ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا»⁶.

الحركة السريعة التي تشبه الصلاة ليست هي الأداء المتعلم. الصلاة نفسها مقصودة؛ فلا تدخلها بعجلة المهمة السابقة ثم تعاملها كزر لإغلاق بند.

6 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، رقم الحديث ٧٥٧

الرخصة اتباع أيضًا

روى يعلى بن أمية رضي الله عنه:

«قُلْتُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا}، فَقَدْ أَمِنَ النَّاسُ. فَقَالَ: عَجِبْتُ مِمَّا عَجِبْتُ مِنْهُ، فَسَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: صَدَقَ تَصَدَّقَ اللَّهُ بِهَا عَلَيْكُمْ فَاقْبَلُوا صَدَقَتَهُ»⁷.

الرخصة الثابتة ليست نقصًا في الانضباط. المسافر والمريض يتعلمان حكم حالهما ولا يجعلان المشقة معيار الصدق. وفي المقابل لا تُتخذ كلمة «التيسير» ذريعة لتخمين الأحكام؛ المرجع إلى العلم الموثوق.

مراجعة ظاهرة لا حكم على القلب

من يتكرر معه اضطراب الصلاة يسأل: هل أبدأ مهمة طويلة قبلها؟ هل أنام بطريقة تجعل الاستيقاظ شديد الصعوبة؟ هل أصل بعجلة لأنني لم أترك وقت انتقال؟ هل أجهل حكمًا يلزمي تعلمه؟ ثم يختار سببًا واحدًا ظاهرًا ويعالجه.

⁷ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم الحديث ٦٨٦، الرواية أ

لا يضع لنفسه «درجة خشوع» ولا يقيس الإخلاص. الفرق كبير بين «أنا غير منضبط» و«أبدأ مكالمة قبل الصلاة فأصل متأخرًا». الثانية مشكلة محددة يمكن العمل عليها، أما الأولى فقد تبقى جلدًا للنفس.

الصلاة تعلمنا أن الوفاء ليس استعجالاً: نعرف الوقت، ونستعد، ونتعلم الصفة، ونطمئن في الأداء، ونقبل الرخصة حين يثبت سببها. ثم نعود إلى الصلاة التالية إن وقع تقصير، بدل أن نحكم على اليوم كله بالضياع.

الفصل الثاني: الطهارة والنظام دون وسواس

قد يبدأ الخلل من حرص محمود على صحة العبادة، ثم يتحول الحرص إلى إعادة لا تنتهي: هل وصل الماء؟ هل انتقض الوضوء؟ هل أعيد مرة أخرى؟ هنا نحتاج إلى ميزانين معًا: نتعلم صفة الطهارة فلا نهملها، ونعرف متى انتهى العمل فلا نطبع كل شك.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾، ثم قال بعد أحكام الغسل والتيمم: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾. [المائدة: ٦].⁸

الطهارة عبادة ذات أفعال معلومة، وليست اختبارًا للحصول على شعور نفسي كامل باليقين.

8 القرآن الكريم، سورة المائدة، الآية ٦؛ الوضوء والغسل والتيمم وخاتمة رفع الحرج وإرادة التطهير

صفة ثرى وتعلم

روى حمران مولى عثمان رضي الله عنه النص الآتي:

«أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ دَعَا بِوُضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ مَضَمَضَ وَاسْتَنْشَرَهُ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»⁹.

شاهد عثمان رضي الله عنه الصفة، ثم أراها لمن بعده. يتعلم المسلم من مصدر موثوق ما يلزمه، ويؤديه، ولا يخترع خطوات جديدة كلما عاد إليه القلق.

9 من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم الحديث ٢٢٦، الرواية أ

الإسباغ ليس كثرة الإعادة

روى أبو هريرة رضي الله عنه:

«أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلًا لَمْ يَغْسِلْ عَقْبِيهِ فَقَالَ: وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ».¹⁰

النص يمنع التساهل: يجب أن يصل الغسل إلى موضعه. لكنه لا يجعل كثرة الماء أو عدد الإعادات معيارًا للإتقان. وروى أنس رضي الله عنه:

«كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَغْسِلُ - أَوْ كَانَ يَغْتَسِلُ - بِالصَّاعِ إِلَى خَمْسَةِ أَمْدَادٍ، وَيَتَوَضَّأُ بِالْمُدِّ».¹¹

لا نحول المقادير هنا إلى امتحان باللترات؛ وإنما نفهم أن الوضوء النبوي لم يكن قائمًا على صب الماء بلا نهاية. المطلوب أن يصيب الماء ما يجب غسله، لا أن يكرر المتوضئ الفعل حتى يحصل على إحساس لا يشوبه احتمال.

10 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكماهما، رقم الحديث ٢٤٢، الرواية أ

11 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، رقم الحديث ٢٠١

نص الشك: لا تنصرف لمجرد الخيال

روى عباد بن تميم عن عمه:

«أَنَّهُ شَكَاَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الرَّجُلَ الَّذِي يُخَيِّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ: لَا يَنْفَتِلْ - أَوْ لَا يَنْصَرِفْ - حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا أَوْ يَجِدَ رِيحًا».¹²

هذا الحكم في صورته المذكورة لا يترك الحالة الثابتة لمجرد شك عارض. ولا يجوز أن نعممه من غير علم على كل مسألة، لكن العبرة واضحة: ليس كل خاطر أمراً يجب تنفيذه. أحياناً يكون الانضباط في أن تكف عن فعل زائد بعد أن أدت ما عليك.

متى يصبح التكرار مشكلة أوسع؟

هناك تكرار للتعلم وتصحيح خطأ معلوم، وهناك تكرار هدفه إسكات قلق يعود بعد دقائق. يتوضأ صاحبه، ثم يقول: لعل الماء لم يصل؛ فيعيد. ثم: لعل النية لم تكن صحيحة؛ فيعيد. فإذا كان كل تكرار يفتح سؤالاً جديداً، فالمشكلة قد لا تكون نقص المعلومات وحده.

12 من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم الحديث ١٣٧

تذكر المصادر الطبية الموثوقة أن اضطراب الوسواس القهري قد يتضمن أفكارًا متكررة غير مرغوبة وأفعالاً قهرية تستغرق وقتًا أو تسبب ضيقًا أو تعطل الحياة اليومية.¹³ هذا وصف عام لا يشخص القارئ، ولا يعني أن كل إعادة للوضوء اضطراب نفسي.

إذا صار التكرار قهريًا شديد الضيق أو معطلًا، فالمسار الأمين مزدوج: سؤال عالم موثوق عن الحكم الشرعي، وسؤال مختص نفسي مؤهل عن الجانب العلاجي. لا يحل أحد المجالين محل الآخر، ولا تكفي عبارة «قوّ إرادتك» لعلاج حالة طبية محتملة.

تعليم الطفل بلا صناعة خوف

يرى الطفل الوضوء، ويعرف أفعاله، ويجرب، ويصح له الكبير خطأ ظاهرًا، ثم يمنحه مساحة للاستقلال. أما تكرار السؤال: «هل أنت متأكد مئة في المئة؟» فقد يعلمه أن العبادة لا تصح إلا بشعور كامل لا يملكه دائمًا.

13 المعهد الوطني للصحة النفسية، اضطراب الوسواس القهري، الصفحة الرسمية: تعريف الوسواس والأفعال القهرية وكون الأعراض قد تكون مستغرقة للوقت أو مسببة للضيق أو معيقة للحياة اليومية

نصح ما نراه خطأ، ولا نصنع سلسلة احتمالات. فإذا أتم الطفل ما تعلمه على وجه صحيح، انتقل إلى الصلاة. فالتربية على الطهارة تعليم للفعل، لا تدريب على التفتيش المستمر.

حالة عملية

هذه حالة افتراضية: شاب يعيد غسل ذراعه لاحتمال صغير، ثم يعيد الوضوء لأنه لم يدر أغسل وجهه مرتين أم ثلاثاً، ثم يعود لحركة شعر بها في بطنه. يتأخر عن الجماعة وهو يقول: «أريد طهارة صحيحة».

التصحيح لا يكون بإهمال الوضوء، بل بتعلم ما يلزمه، والتمييز بين خطأ معلوم واحتمال. وإذا استمرت السلسلة رغم معرفة الحكم، واستغرقت وقتاً وأورثت ضيقاً وامتدت إلى أبواب أخرى، طلب مساعدة متخصصة.

يمكنه أن يراجع سلوكاً ظاهراً لعدة أيام: هل أعدت بسبب يقين أم بسبب شك فقط؟ هل تركت الماء جارياً بلا حاجة؟ هل أخرت الصلاة بالتركرار؟ هذه الملاحظة لا تمنحه «درجة طهارة» ولا تقيس ورعه؛ إنها تحدد موضع التعلم أو العلاج.

الطهارة تعلم معنى كاملاً للانضباط: تعرف متى تبدأ، وكيف تؤدي، ومتى تنتهي. علم قبل العمل، وإسباغ يمنع التفريط، وحد يمنع الإعادة التي لا تنتهي.

الفصل الثالث: الصيام: امتثال عند البدء والانتهاء

الصيام ليس مسابقة في احتمال الجوع، بل عبادة تبدأ وتنتهي بحدود معلومة، وتصحبها أخلاق ورخص. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾. [البقرة: ١٨٣].¹⁴ وفسر الطبري الصيام بالكف عما أمر الله بالكف عنه، مع بيان معنى الفرض في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ﴾.¹⁵

لا تجعلنا الآية قادرين على قياس التقوى بدرجة. الذي يمكن متابعته سلوك ظاهر: حفظ الوقت، واللسان، ومعرفة الرخصة، والعودة بعد النسيان.

14 القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٨٣؛ فرض الصيام وذكر غاية التقوى

15 محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تفسير سورة

البقرة، الآية ١٨٣؛ معنى كتب عليكم الصيام وأصل معنى الصيام

للعادة بداية ونهاية

قال تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُمُوا الصَّيَّامَ إِلَى اللَّيْلِ﴾. [البقرة: ١٨٧].¹⁶

الطاعة في الإمساك حين يبدأ وقته، وفي الإفطار حين ينتهي. فزيادة المشقة ليست عبادة مستقلة. ومن السنة الاستعداد للصوم؛ قال النبي ﷺ: «تَسَحَّرُوا فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكََةً».¹⁷ إعداد الجسد للطاعة ليس ضعفاً، ولا يحتاج أن يتحول السحور إلى وصفة صحية واحدة تناسب الجميع.

الصوم يضبط اللسان أيضاً

قال أبو هريرة رضي الله عنه إن النبي ﷺ قال: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ».¹⁸

16 القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٨٧؛ الأكل والشرب إلى الفجر وإتمام

الصيام إلى الليل وحدود الله

17 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب

بركة السحور من غير إيجاب، رقم الحديث ١٩٢٣

18 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من

لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم الحديث ١٩٠٣

لا نستخرج من هذا النص وحده حكم بطلان صوم كل من عصى؛ لذلك يرجع التفصيل إلى الفقه. لكن معناه التربوي لا يحتاج استطراداً؛ ليس نجاح الصوم في ترك الطعام مع إطلاق الكذب والأذى.

وجاء في حديث آخر كامل المعنى في هذا الباب:

«قَالَ اللَّهُ: كُلُّ عَمَلٍ ابْنِ آدَمَ لَهُ إِلَّا الصَّيَّامَ فَإِنَّهُ لِي وَأَنَا أَجْزِي بِهِ، وَالصَّيَّامُ جُنَّةٌ، وَإِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ وَلَا يَصْخَبْ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ. وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَخُلُوفٌ فِيمَ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمِسْكِ، لِلصَّائِمِ فَرْحَتَانِ يَفْرَحُهُمَا: إِذَا أَفْطَرَ فَرِحَ، وَإِذَا لَقِيَ رَبَّهُ فَرِحَ بِصَوْمِهِ».¹⁹

حين يستفز الصائم لا تكون المجاهدة في الجوع وحده، بل في ألا يجره الاستفزاز إلى الرفث والصخب. وهذا تعليم في سياق الصيام، لا شعاراً لإسقاط الحقوق أو السكوت عن ظلم يحتاج معالجة مشروعة.

19 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إنني صائم إذا شتم، رقم الحديث ١٩٠٤

النسيان لا يحول اليوم إلى خراب

قال النبي ﷺ:

«إِذَا نَسِيَ فَأَكَلَ وَشَرِبَ فَلَيْتَمَّ صَوْمَهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ».²⁰

النص محدد في الأكل والشرب نسياناً، ولا نعممه على كل مفطر أو كل إخلال. لكن العبرة واضحة: لا تجعل الهفوة التي بين النص حكمها ذريعة لترك بقية اليوم. اعرف الحكم ثم أكمل ما أمرت بإكماله.

الرخصة جزء من النظام

قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾. [البقرة: ١٨٥].²¹

20 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب

الصائم إذا أكل أو شرب ناسياً، رقم الحديث ١٩٣٣

21 القرآن الكريم، سورة البقرة، الآية ١٨٥؛ صيام رمضان، المرض والسفر،

القضاء واليسر وإكمال العدة

وتظهر العبرة في قصة جابر رضي الله عنه بلفظها:

«كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي سَفَرٍ، فَرَأَى زِحَامًا وَرَجُلًا قَدْ ظَلَلَ عَلَيْهِ، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: صَائِمٌ. فَقَالَ: لَيْسَ مِنَ الْبِرِّ الصَّوْمُ فِي السَّفَرِ».²²

وردت نصوص أخرى في صوم المسافر وفطره، فلا نجعل هذه القصة وحدها حكمًا لكل مسافر. موضعها أن الرجل بلغ به الصوم هذه المشقة في ذلك السفر. العبرة التي تهتم القارئ: لا تجعل تحمل الضرر مقياسًا للصدق، واسأل عن حكم حالك بدل أن تفاخر برفض الرخصة.

البحث العلمي لا يثبت قيمة العبادة

نشرت دراسات عن الصيام في رمضان والضبط المعرفي بنتائج لا تختصر في شعار. أشارت دراسة حديثة إلى تحسن في بعض مقاييس التحكم التثبيطي لدى مجموعة صامت رمضان، مع بقاء قيود التصميم وعدم التوزيع العشوائي.²³

22 من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلل عليه، واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم الحديث ١٩٤٦

23 مصطفى سالاري راد، الحرمان الذاتي والإدراك في رمضان: هل يمكن لممارسة الصيام أن تحسّن التحكم التثبيطي؟، الدين والدماغ والسلوك

وأظهرت دراسة أخرى كلفة معرفية لحظية في بعض الظروف عندما كان الطعام حاضرًا في الذهن أثناء الصوم.²⁴

لا يلزم أن نختر نتيجة دعائية. المهمة المخبرية لا تقيس التقوى، والعبادة لا تحتاج إلى شهادة المختبر. تُقرأ الدراسة في حدود سؤالاتها، ولا تُحمّل حكمًا على الصوم أو انتقالًا تلقائيًا إلى الصدق والأمانة.

في البيت والعمل

لا تجعل الأسرة رمضان مشروع توتر: لا يقارن طفل بأخيه، ولا يتهم المريض بالضعف لأنه سأل عن الرخصة، ولا يجعل الصائم الجوع عذرًا لسوء الخلق. ومن أراد أن ينظم نومه وعمله فعل ذلك ليؤدي الحقوق، لا ليصنع أشد يوم ممكن ثم يفاخر باحتماله.

هذه حالة افتراضية: شاب يترك السحور ليختبر إرادته، ويؤخر الإفطار عمدًا، ويسهر ثم يغضب في العمل. التصحيح ليس أن يبحث عن الراحة وحدها، بل أن يعيد معيار النجاح

١٦(٣): ٢٣٤-٢٥٩؛ نشر إلكتروني ١٦ يونيو ٢٠٢٥؛ سنة ٢٠٢٦؛ نشر إلكتروني ٢٠٢٥
24 مصطفى سالاري راد؛ مرتضى أنصاري؛ إدار شافير، قد يضعف الحرمان الذاتي المؤقت التحكم المعرفي: أدلة من صيام رمضان، ملخص قاعدة بيمد؛
نشرة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي ٤٩(٣): ٤١٥-٤٢٨؛ سنة ٢٠٢٣

إلى النص: يتسحر اتباعاً للسنة، يمسك ويفطر في الوقت، يحفظ لسانه، ويسأل عن الرخصة إن تغيرت قدرته.

وفي المراجعة يسأل أربعة أسئلة ظاهرة: هل أحفظ بداية الصوم ونهايته؟ هل يظهر أثره في لساني؟ إذا وقع نسيان هل أعرف حكمه وأعود؟ وإذا مرضت أو سافرت هل أرجع إلى علم موثوق؟ هذه الأسئلة لا تقيس التقوى؛ إنها تكشف مواضع عمل محددة.

الصيام يعلم أن الفضيلة ليست في المنع وحده، بل في طاعة الحد كله: إمساك في وقته، وإفطار في وقته، ولسان محفوظ، ورخصة تؤخذ حين يثبت سببها، وعودة صحيحة بعد النسيان.

الفصل الرابع: الذكر والقراءة والأوراد

يسهل أن يترك الإنسان القليل النافع لأنه ينتظر وقتًا مثاليًا، كما يسهل أن يحول نظامه الشخصي إلى عبادة مقيدة لم يرد تقييدها. والميزان أن نتبع العدد والوقت حيث جاء بهما النص، وأن نبقي خططنا الشخصية أدوات قابلة للتعديل.

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ۝ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾. [الأحزاب: ٤١-٤٢].²⁵ الأصل في الآية واسع، وفي السنة أذكار خست بعدد أو موضع. لا تعارض بين السعة وحفظ القيد.

العدد حين يأتي من النص

قال أبو هريرة رضي الله عنه إن رسول الله ﷺ قال:

«مَنْ سَبَّحَ اللَّهَ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَحَمِدَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، وَكَبَّرَ اللَّهَ ثَلَاثًا وَثَلَاثِينَ، فَتِلْكَ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ، وَقَالَ تَمَامَ الْمِائَةِ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ

25 القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآيتان ٤١-٤٢؛ الأمر بذكر الله كثيرًا والتسبيح بكرة وأصيلًا

الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ؛ غُفِرَتْ خَطَايَاهُ وَإِنْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ».²⁶

العدد هنا من الرواية، لا من أداة متابعة اخترعها القارئ. فإذا عمل بهذا الذكر حفظ صفته. أما أن يقول: «سأقرأ صفحتين بعد الفجر لأن هذا يناسب يومي» فذلك تنظيم شخصي مشروع في أصله، لكنه لا يمنح الصفحتين أو الوقت فضلاً مخصوصاً بلا دليل.

ولا يكشف الرقم وحده حقيقة العمل. يمكن للمرء أن يعرف هل أتم العدد الوارد، لكنه لا يقيس إخلاصه أو منزلته عند الله بعداد.

القرآن صلة لا خانة مغلقة

قال أبو أمامة رضي الله عنه إنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «اقْرَءُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ، اقْرَءُوا الزَّهْرَاوَيْنِ: الْبَقْرَةَ وَسُورَةَ آلِ عِمْرَانَ، فَإِنَّهُمَا تَأْتِيَانِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا غَمَامَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا غَيَّابَتَانِ، أَوْ كَأَنَّهُمَا فِرْقَانِ مِنْ طَيْرٍ

26 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم الحديث 597، الرواية أ

صَوَافٍ، تُحَاجَّانِ عَنْ أَصْحَابِهِمَا. اقْرَأُوا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَإِنَّ
أَخَذَهَا بَرَكَةً وَتَرَكَهَا حَسْرَةً وَلَا تَسْتَطِيعُهَا الْبَطَلَةُ».²⁷

النص يحث على القراءة ويخص السورتين بما ورد. ولا يلزم من ذلك أن يصبح الإنجاز كمية مجردة؛ فالقرآن يقرأ ويتعلم ويتدبر ويُعمل به. من قرأ مقدارًا أقل مع فهم ليس في منافسة مع من قرأ أكثر، ومن جمع الكثرة والفهم فذلك فضل. الخلل أن يصبح عدد الصفحات وحده تعريفًا للعلاقة بالقرآن.

القدرة لا تعني أن ترفع المقدار بلا حد

روى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: اقْرَأِ الْقُرْآنَ فِي شَهْرٍ. قُلْتُ: إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً،
حَتَّى قَالَ: فَأَقْرَأْهُ فِي سَبْعٍ وَلَا تَزِدْ عَلَى ذَلِكَ».²⁸

قول «أستطيع أكثر» لا يجعل الزيادة دائمًا أحكم. يختار القارئ مقدارًا يبقى معه الفهم والواجبات والنوم وحقوق الأسرة، بدل خطة تشتعل أيامًا ثم تنطفئ.

27 من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم الحديث ٨٠٤، الرواية أ

28 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، رقم الحديث ٥٠٥٤

الورد الشخصي وخطة العودة

الورد مقدار يختاره الإنسان ليعود إلى القرآن أو الذكر بانتظام. يكون نافعا حين يكون واضحا وواقعيا ولا يزاحم واجبا، وحين يعرف صاحبه أنه تنظيم شخصي لا تشريع لغيره.

ومن النصوص التي تعلم العودة بعد الفوات قول النبي ﷺ:

«مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَصَلَاةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ».²⁹

هذا النص في الحزب المقروء على الصورة المذكورة، ولا نعممه آليا على قضاء كل عبادة. لكنه يهدم فكرة أن فوات الموعد يساوي ضياع العمل كله. وما كان واجبا فله حكمه، أما المقدار الشخصي فصاحبه يستطيع نقله أو تخفيفه عندما يتغير يومه.

29 من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث

خطة لا تنهار عند أول ازدحام

هذه حالة افتراضية: اختار موظف له طفلان أن يقرأ أربعة أوجه بعد الفجر، ويحافظ على الأذكار الواردة بعد الصلاة. ثم تغير وقت عمله ومرض طفل.

يفرق أولاً بين الأمرين. الأذكار المقيدة يتعلم صيغتها وموضعها وعددها من النص. أما أربعة الأوجه فهي اختياره؛ يستطيع أن يجعل في اليوم الضيق وجهًا واحدًا يحفظ أصل الصلة، وأن يزيد في اليوم الواسع. وإذا فاتته وقت القراءة نقلها إلى وقت مناسب، وإذا تعارضت مع حاجة عاجلة لطفل لا يقوم بها غيره أدى الحق ثم عاد.

ليس النجاح ألا يفوته يوم قط، بل أن يعرف الفرق بين السنة المقيدة وخطته، وألا يجعل الفوات القصير انقطاعًا طويلًا.

متى يعدل الورد؟

إذا كان المقدار يوقعك باستمرار في تضييع واجب، أو يدفعك إلى سرعة لا تفهم معها شيئًا، أو يجعل فوات ليلة سببًا لليأس أسبوعًا، فراجع تصميمه. وإذا كان ينقص كلما ثقل المزاج حتى اختفى، فثبت قدرًا أصغر صالحًا للأيام العادية.

لا يعني ذلك أن كل مشقة خطأ؛ العبادة تحتاج مجاهدة. المقصود التمييز بين مشقة طبيعية تحملها النفس، وخطة سيئة تعيد الفشل نفسه. وقالت عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال:

«سَدِّدُوا وَقَارِبُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ لَنْ يُدْخَلَ أَحَدَكُمْ عَمَلُهُ الْجَنَّةَ، وَأَنَّ أَحَبَّ الْأَعْمَالِ أَدْوَمُهَا إِلَى اللَّهِ، وَإِنْ قَلَّ».³⁰

فالمقصود عمل يستقيم ويبقى، لا مقدار كبير يقطع صاحبه عن العودة.

وفي برنامج الأسابيع الاثني عشر يكون رقم المتابعة وصفاً للسلوك الذي اختاره المتدرب، لا مقياساً للتقوى ولا فضلاً شرعياً جديداً. البرنامج كله مقترح تربوي غير مقنن، ويظل قابلاً للتعديل بحسب القدرة والحقوق.

الذكر والقراءة لا يحتاجان إلى يوم مثالي. نثبت ما قيده النص كما ورد، ونختار لما كان واسعاً مقداراً يعيننا، ونعرف طريق العودة بعد الفوات، ولا نجعل الورد الشخصي مزاحماً لحق واجب. بذلك تخدم الأرقام العبادة ولا تحل محل معناها.

30 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث ٦٤٦٤

الفصل الخامس: قيام الليل والرفق والمداومة

في الليل مساحة لا تشبه النهار. تخف الأصوات، وتنقطع أعمال كثيرة، ويجد الإنسان نفسه أقرب إلى سماع ما يدور في قلبه. ولهذا كان قيام الليل من أجلّ النوافل، وجاء في القرآن وصف عبادة أهل الإحسان في الليل. لكن هذا الباب نفسه يكشف معنى دقيقًا من معاني الانضباط الذي نبخته في هذه السلسلة: ليس الانضباط أن تقاوم النوم بأي ثمن، وإنما أن تتعلم كيف تجمع بين المجاهدة والفقه، وبين المحبة والقدرة، وبين المداومة وحق الجسد.

قد يبدو للإنسان أن أقوى صورة للعبادة هي أطولها وأشدّها. فإذا قام ساعة أحب أن يجعلها ساعتين، وإذا نام ليلة عدّها هزيمة، وإذا رأى غيره يطيل القيام قاس نفسه عليه. غير أن الهدي النبوي لا يبني قيام الليل على هذه المعادلة البسيطة. فيه طول وخشوع، وفيه نوم، وفيه نهى عن الصلاة عند غلبة النعاس، وفيه استدراك إذا فات العمل لعذر، وفيه توجيه لمن أراد أن يقوم الليل كله أن يصلي وينام.

وهذه الصورة المركبة مهمة؛ لأنها تعلمنا أن الرفق ليس الطرف المقابل للمجاهدة، بل قد يكون من شروط بقائها.

الليل ميدان عبادة، لا ميدان استعراض للقدرة

افتتحت سورة المزمل بخطاب عظيم: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمِلُ ۝ فُم اللَّيْلِ إِلَّا قَلِيلًا ۝ نِصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ۝ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾.³¹ وقال تعالى في ختامها:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِّنَ الَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّنْ نَّحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنْكُم مَّرْضَىٰ ۚ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ۚ وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

[المزمل: ٢٠].³²

تجمع السورة بين معانٍ يحتاج إليها السائر: تكليف ومجاهدة في أولها، وعلم بالقدرة والمرض والسفر والتيسير في

31 القرآن الكريم، سورة المزمل ١-٤؛ الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن

32 القرآن الكريم، سورة المزمل ٢٠؛ التخفيف وذكر المرض والسفر وقراءة ما

آخرها. ليست الرحمة طارئة على العبادة، وليست المشقة مقصودة لذاتها.

وفي سورة الفرقان جاء قيام الليل ضمن صفات عباد الرحمن: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾³³. والآية لا تعطينا جدولاً موحدًا لعدد الركعات أو الساعات لكل مسلم، وإنما تصف عبودية الليل. ولهذا لا يصح أن نحول الوصف القرآني إلى منافسة رقمية: من نام أقل فهو أعبد، ومن أطال أكثر فهو منضبط أكثر. هذه المقارنات تضيف إلى النص ما لم يقله.

قيام الليل عبادة لله. وإذا دخلت إليه فكرة الانضباط، فهي خادمة للعبادة: تساعد الإنسان على أن يتهياً، وينام في وقت مناسب، ويستيقظ، ويبدأ، ويستمر، ويعود بعد الفوات. لكنها لا تحول الصلاة إلى اختبار أداء بدني.

33 القرآن الكريم، سورة الفرقان ٦٤؛ يبيتون لربهم سجداً وقياماً

حين يأمر الهدي بالنوم

قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا نَعَسَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ يُصَلِّي فَلْيَرْقُدْ حَتَّى يَذْهَبَ عَنْهُ النَّوْمُ، فَإِنْ أَحَدَكُمْ إِذَا صَلَّى وَهُوَ نَاعِسٌ لَا يَدْرِي لَعَلَّهُ يَسْتَغْفِرُ فَيَسُبَّ نَفْسَهُ»³⁴.

هذا النص يصحح تصورًا شائعًا عن المجاهدة. فالمجاهدة ليست دائمًا أن تقول للجسد: «لا». أحيانًا تكون الطاعة في أن تعرف أن وعيك قد ضعف وأن استمرار الصورة الظاهرة للعمل لم يعد يحقق مقصودها كما ينبغي.

والفرق كبير بين كسل يستطيع الإنسان دفعه وبين نعاس يغلب إدراكه. الأول قد يحتاج أن يقوم من فراشه ويتوضأ ويبدأ. والثاني جاء فيه توجيه صريح إلى النوم حتى يعلم المصلي ما يقول. لذلك لا يصح أن نجعل كل رغبة في النوم عذرًا لترك القيام، كما لا يصح أن نجعل كل مقاومة للنوم فضيلة مهما بلغ أثرها على الوعي والجسد.

34 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم الحديث ٢١٢

هذه القدرة على التمييز جزء من الانضباط الناضج. المبتدئ قد لا يعرف إلا أمرين: إما أن يقسو على نفسه، أو أن يترك العمل. أما المتعلم فيسأل: ما حالتي الآن؟ هل أنا أمام ثاقل طبيعي يحتاج بدءاً؟ أم أمام إنهاك يجعل الصلاة نفسها مضطربة؟ وهل تكرر هذا لأن خطتي الليلية غير واقعية أصلاً؟

الحبل الذي لم يتركه النبي ﷺ في المسجد

روى أنس بن مالك رضي الله عنه:

«دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ. قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ: النَّبِيُّ ﷺ لَا، حُلُوهُ، لِيُصَلَ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ».³⁵

هذه الواقعة بالغة الدلالة في موضوعنا. زينب لم تضع الحبل لتلهو، وإنما لتستمر في عبادة حين يضعف بدنها. ومع ذلك لم يُقر الوسيلة. فليس كل ما يساعد على «إكمال الخطة» محموداً. قد تكون الوسيلة نفسها علامة على أن الإنسان تجاوز القدر الذي يحسن أن يحمله.

35 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم الحديث 1150

في ثقافة الإنجاز الحديثة يمكن أن تُمدح هذه الصورة بوصفها «التزامًا مهما كان الثمن». أما التربية النبوية فتسأل عن الثمن نفسه. هل صار استمرار النافلة يحتاج إلى وسيلة تمنع الجسد من الاستجابة لتعبه؟ هل تحولت الرغبة في الخير إلى صراع مع حد طبيعي ينبغي اعتباره؟

لا يعني هذا أن كل تعب يوجب التوقف؛ فالصلاة فيها قيام ومجاهدة، والناس تختلف طاقتهم. لكن الحديث يضع حدًا لفكرة خطرة: لا تجعل استمرارك في النافلة مرهونًا بإجبار الجسد على صورة لا يطيقها.

أقوى الناس عبادة لا يلغي النوم

قال رسول الله ﷺ لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

«أَحَبُّ الصَّلَاةِ إِلَى اللَّهِ صَلَاةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَحَبُّ الصِّيَامِ إِلَى اللَّهِ صِيَامُ دَاوُدَ، وَكَانَ يَنَامُ نِصْفَ اللَّيْلِ وَيَقُومُ ثُلُثَهُ وَيَنَامُ سُدُسَهُ، وَيَصُومُ يَوْمًا وَيَفْطِرُ يَوْمًا».³⁶

36 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري،

كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم الحديث ١١٣١

اللافت هنا أن النوم ليس مجرد فراغ بين عبادتين؛ هو جزء ظاهر من الصورة المنقولة. يقوم ثم يعود إلى النوم. وهذا يمنعنا من تصور أن أفضل قيام لا بد أن يبتلع الليل كله.

ولا نستخرج من الحديث جدولاً حسابياً يجب أن يطبقه كل مسلم؛ الحديث يصف صلاة داود في سياقه، وأحوال الناس مختلفة. لكن يمكن أن نستخرج معنى ثابتاً: **كمال العبادة لا يستلزم إلغاء الراحة**. بل قد يكون توزيع الليل نفسه أكثر موافقة للهدى من اندفاع يستهلك الليل ثم يفسد النهار.

وهذا مهم لمن لديه عمل أو دراسة أو أطفال أو قيادة سيارة أو مسؤولية تتطلب يقظة. لا يجوز أن يبني نافلته على صورة تجعله يضيع فريضة أو حقاً أو سلامة. ليس المطلوب أن يجعل الدنيا ذريعة لترك قيام الليل، بل أن يجعل القيام جزءاً من حياة يمكن أن تستمر.

«قم ونم»: تصحيح الحماسة قبل أن تتحول إلى عبء

قال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

«قَالَ: لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ اللَّيْلَ. فَقُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ

حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَاجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْوَاجِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ. فَشَدَّدْتُ، فَشَدَّدَ عَلَيَّ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَجِدُ قُوَّةً. قَالَ: فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ. قُلْتُ: وَمَا كَانَ صِيَامُ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: نِصْفَ الدَّهْرِ. فَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يَقُولُ بَعْدَ مَا كَبِرَ يَا لَيْتَنِي قِيلْتُ رُخْصَةَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ 37.

هذا الحديث من النصوص المؤسسة لفكرة الانضباط المتوازن. المشكلة لم تكن في حب العبادة، بل في تصميم حياة قد تجعل نافلة واحدة تستولي على بقية الحقوق. والرسالة ليست: «لا تجتهد». بل: اجتهد بطريقة لا تهدم ما أوجب الله عليك حفظه.

في حياة معاصرة قد يكون الشخص قادرًا على قيام طويل ليلة أو ليلتين، ثم يذهب إلى عمله فاقد التركيز، أو يصبح سريع الغضب مع أسرته، أو يعجز عن أداء الفجر في وقته، أو يقود وهو شديد النعاس. فالنافلة لا تبرر تضييع الواجب، وسلامة الإنسان ومن حوله حق ينبغي أن يحفظه.

37 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري،

كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم الحديث ١٩٧٥

ومن الخطأ المقابل أن نستخدم «حق الجسد» ذريعة لتأجيل كل مجاهدة. الجسد له حق، لكنه ليس صاحب القرار الوحيد. قد يكون الذي يمنع القيام مجرد سهر اختياري على الهاتف. هنا لا يكون الرفق أن نستسلم لكل ميل، بل أن نصلح سبب السهر ونهيب النوم ونضع قدرًا يمكن احتماله.

مقدار يستطيع أن يبقى

روى أبو سلمة بن عبد الرحمن:

«أَنَّهُ سَأَلَ عَائِشَةَ كَيْفَ كَانَتْ صَلَاةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي رَمَضَانَ قَالَتْ: مَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَزِيدُ فِي رَمَضَانَ وَلَا فِي غَيْرِهِ عَلَى إِحْدَى عَشْرَةِ رَكْعَةٍ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ ثُمَّ يُصَلِّي أَرْبَعًا فَلَا تَسْأَلُ عَنْ حُسْنِهِنَّ وَطُولِهِنَّ ثُمَّ يُصَلِّي ثَلَاثًا فَقَالَتْ: عَائِشَةُ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَنَامُ قَبْلَ أَنْ تُوتِرَ فَقَالَ: يَا عَائِشَةُ إِنَّ عَيْنَيَّ تَنَامَانِ وَلَا يَنَامُ قَلْبِي».³⁸

كان عملاً يتكرر بإحسان، وكانت عائشة تذكر حسنه وطوله. يحتاج من يبدأ إلى أن يعتني بما يؤديه، فلا يجعل رغبته في زيادة المقدار تذهب بحضور قلبه وفهمه لما يقرأ.

38 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم الحديث ٧٣٨، الرواية أ

وروت عائشة رضي الله عنها:

«قَالَتْ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحَبُّ الْأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى أَدْوَمُهَا وَإِنْ قُلَّ. قَالَ: وَكَانَتْ عَائِشَةُ إِذَا عَمِلَتْ الْعَمَلَ لَزِمَتْهُ».³⁹

من أراد أن يبدأ اختار ما يقدر على ملازمته، ثم زاد حين تتسع قدرته.

قد تكون البداية ركعتين يحافظ عليهما الإنسان في وقت يستطيع أن يستيقظ فيه. وقد يزيد بعد أن يستقر نومه ويعرف أثر ذلك على يومه. هذا اقتراح تنظيمي لا تحديد شرعي لعدد مثالي لكل شخص. الأحكام المتعلقة بالوتر والقيام وصفاته ترجع إلى أدلتها وأهل العلم، أما تصميم عادة الاستيقاظ نفسها فيتأثر بحال الإنسان.

ومن هنا نفهم لماذا قد تكون خطة صغيرة صادقة خيرًا تربويًا من خطة كبيرة لا تعيش إلا ثلاثة أيام. ليس لأن القليل مطلوب لذاته، بل لأن المداومة تعطي النفس فرصة أن تتعلم الاستيقاظ والبدء والعودة، بدل أن تتعلم دورة أخرى من الحماس ثم الانقطاع.

39 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم الحديث ٧٨٣، الرواية ب

إذا فات الليل، لا تحوّل الفوات إلى هوية

روت عائشة رضي الله عنها:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا فَاتَتْهُ الصَّلَاةُ مِنَ اللَّيْلِ مِنْ وَجَعٍ أَوْ غَيْرِهِ صَلَّى مِنَ النَّهَارِ ثِنْتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً».⁴⁰

لم يتحول الفوات إلى نهاية العمل؛ للعارض عذره، وللعودة طريقها.

كثير من الناس لا ينقطعون لأنهم عاجزون عن البداية، بل لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بعد أول انقطاع. يضع أحدهم خطة قيام، ثم يمرض، أو يسافر، أو يسهر مع طفل مريض، فيفوته يومان. بعد ذلك يشعر أن السلسلة كُسرت، فيترك الأسبوع كله.

الهدي يعلمنا منطقتًا آخر: يوجد عذر، ويوجد فوات، ويوجد استدراك، وتوجد عودة. لا حاجة إلى تحويل ليلة فائتة إلى حكم على الشخصية: «أنا لا أستطيع المداومة». الذي حدث واقعة محددة، لا تعريف للإنسان.

40 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث ٧٤٦، الرواية هـ

وفي الوقت نفسه لا ينبغي أن يصبح «الاستدراك» دينًا تنظيميًا متراكمًا يخنق صاحبه. ما له حكم شرعي في القضاء أو الاستدراك يُتعلّم من بابه، وما كان هدفًا شخصيًا زائدًا فليس واجبًا أن يضاعفه الإنسان حتى يعاقب نفسه على كل فوات.

قيام الليل ليس تعويضًا عن فوضى النهار

قد يحب الإنسان صورة القيام لكنه لا يعالج أسباب عدم قدرته عليه. يسهر على محتوى لا يحتاجه، ويؤخر نومه، ثم يضع ثلاثة منبهات، ويغضب من نفسه حين لا يستيقظ. هنا تصبح المشكلة أقل تعلقًا بـ«ضعف الإرادة» وأكثر تعلقًا بتصميم اليوم.

إذا كان قيام الليل هدفًا حقيقيًا، فبعض مجاهدته يبدأ قبل الليل: إغلاق ما لا حاجة له، ترتيب النوم، إنهاء الأعمال الضرورية في وقتها، وعدم ملء المساء بالتزامات اختيارية ثم مطالبة الفجر بدفع الثمن.

هذا لا يعني أن كل من لم يقم الليل سيئ التنظيم؛ المرض، ورعاية الأطفال، والعمل الليلي، واضطرابات النوم، والسفر، وأحوال كثيرة تغير القدرة. ولا يجوز أن نختزل هذه الظروف

في لوم أخلاقي. لكن من كانت عوائقه تحت اختياره فجزء من صدق الإرادة أن يعمل على العائق، لا أن يكرر الشكوى منه.

الرفق ليس أن تنتظر مزاجًا مثاليًا

يمكن أن يساء فهم هذا الفصل في الاتجاه الآخر: ما دام الهدى راعى النوم والتعب، إذن لا أقوم إلا حين أشعر بنشاط كامل. وهذا ليس المقصود.

العبادة نفسها تحتاج إلى مجاهدة. الفراش دافئ، والليل ساكن، والنفس قد تؤثر الراحة. لو انتظر الإنسان أن تختفي مقاومة النفس تمامًا فقد لا يبدأ. الرفق الصحيح لا يلغي لحظة النهوض التي لا تحبها النفس؛ وإنما يمنع أن تتحول المجاهدة إلى إضرار أو غلو أو تضييع حقوق.

يمكن أن نقول إن هناك ثلاث مناطق تقريبية، لا كأحكام فقهية بل كأداة لفهم النفس:

منطقة التناقل: أنت قادر، لكنك لا ترغب. هنا قد تحتاج أن تقوم قبل أن تفاوض نفسك طويلاً.

منطقة التعب المحتمل: تستطيع أن تصلي بوعي، لكنك لست في أفضل نشاطك. هنا قد تقلل المقدار أو تختار وقتًا أصح.

منطقة غلبة النعاس واضطراب الوعي: هنا جاءت النصوص بالأمر بالنوم حتى يذهب النعاس.⁴¹

هذه ليست أداة تشخيص ولا فتوى فردية؛ لكنها تمنعنا من وضع كل الأحوال في صندوق واحد اسمه «الكسل».

حالة تطبيقية: من «كل ليلة ساعة» إلى نظام يعيش

هذه حالة افتراضية للتوضيح.

شاب يعمل صباحًا قرأ عن فضل قيام الليل، فقرر أن يقوم ساعة كاملة كل ليلة. في الأسبوع الأول فعل ذلك أربع مرات، لكنه كان يسهر أصلًا حتى منتصف الليل، فصار ينام ساعات قليلة. في الأسبوع الثاني بدأ يتأخر عن عمله، وفي الثالث ترك القيام كله.

لو قرأ التجربة بوصفها اختبارًا لقوة الإرادة، فقد يقرر أن الحل هو منبه أقوى وعقوبة أشد. أما إذا قرأها بميزان هذا الفصل فسيسأل أسئلة مختلفة.

41 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم الحديث ٢١٢

أولاً: أين الخل الحقيقي؟ ليس في فضل القيام، بل في أنه أضاف ساعة ليلية من غير أن يحذف شيئاً من السهر السابق.

ثانياً: ما القدر الذي يستطيع أن يبدأ به؟ يختار وقت نوم أبكر، ثم يبدأ بقيام قصير يحافظ فيه على الوعي والخشوع، ويترك باب الزيادة مفتوحاً. هذا مقدار تنظيمي شخصي، لا سنة جديدة.

ثالثاً: ماذا يفعل إذا غلبه النعاس؟ لا يحول الصلاة إلى صراع مع الإدراك؛ يعمل بتوجيه السنة في النوم حتى يذهب النعاس.⁴²

رابعاً: ماذا يفعل إذا فاتته ليلة لعذر؟ لا يعلن انهيار المشروع. يتعلم أحكام الاستدراك في العبادة، ويستفيد تربوياً من هدي النبي ﷺ في العودة بعد الفوات.⁴³

42 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم الحديث ٢١٢

43 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث ٧٤٦، الرواية هـ

خامسًا: كيف يعرف أن الخطة صالحة؟ لا يقيس الإيمان بعدد الليالي، بل يراقب أشياء أقرب إلى السلوك: هل صار نومه أكثر انتظامًا؟ هل يستطيع القيام دون تضييع الفجر أو العمل؟ هل يعود بعد الفوات؟ هل بقيت حقوق أهله محفوظة؟

بعد أسابيع قد يزيد قيامه، وقد يبقى على قدر قليل، وقد تمر به مرحلة مرض أو رعاية تخفض قدرته. نجاح الخطة ليس في أن يصبح نسخة من شخص آخر، بل في أن يبني عبادة صادقة قابلة للبقاء داخل حدود الشرع والقدرة والحقوق.

ما الذي نقيسه، وما الذي لا نقيسه؟

قيام الليل من الأعمال التي قد يغري فيها القياس الرقمي: عدد الركعات، وعدد الليالي، والدقائق، والصفحات المقروءة. وهذه الأرقام قد تكون نافعة في متابعة سلوك شخصي، لكنها لا تقيس وحدها الخشوع ولا الإخلاص ولا القبول.

في المجلد التدريبي يمكن أن نسأل المتدرب: كم ليلة نفذت الخطة التي اخترتها؟ كم مرة عدت بعد فوات؟ ما العائق المتكرر؟ هل أثرت الخطة على حق لازم؟ هذه أسئلة عن تنفيذ الخطة. أما سؤال: «كم بلغت تقواك؟» فليس مما يحسمه جدول.

والقياس نفسه ينبغي أن يخدم التعلم لا جلد الذات. إذا كشف السجل أن معظم الفوات يأتي بعد السهر الاختياري، فقد عرف الشخص موضعاً يمكنه تغييره. وإذا كشف أن الفوات يأتي بسبب نوبات عمل ليلية لا يملكها، فالمطلوب تعديل الخطة لا اتهام الإرادة. وإذا كشف أن القيام الطويل يؤدي باستمرار إلى غلبة النعاس، فالنصوص نفسها تعطيه سبباً لإعادة النظر في المقدار.⁴⁴

المداومة لا تعني ثبات الصورة في كل مرحلة

قد يحافظ الإنسان على قيام طويل في مرحلة من عمره، ثم يولد له طفل، أو يمرض، أو يدخل عملاً بنظام مناوبات، أو يكبر سنه. إذا جعل المداومة مرادفة لصورة واحدة فسيروى كل تغير خسارة. أما إذا جعلها حفظ الصلة بالله ضمن القدرة والحقوق، استطاع أن يغير الصورة دون أن يتخلى عن الأصل.

44 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوءاً، رقم الحديث ٢١٢؛ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم الحديث ١١٥٠

وهذا لا يعني أن كل تغيير نزول محمود. قد يكون التغيير نتيجة تساهل يحتاج مقاومة. لذلك يحتاج الإنسان إلى صدق مع نفسه: هل خففت لأن قدرتي تغيرت حقًا، أم لأن راحتي اتسعت حتى ابتلعت العمل؟ لا يجيب عن هذا دائمًا رقم واحد، بل مراجعة للسبب والسياق.

قيام الليل مدرسة ممتازة لهذا النوع من الصدق. لا يراك الناس في الأصل، ولا تحتاج إلى إثبات شيء لهم. تستطيع أن تختار مقدارًا يناسبك، ثم تزيد حين تتسع قدرتك، وتخفف حين يوجد عذر معتبر، وتعود حين تفوتك ليلة. وفي كل ذلك تبقى الغاية عبادة الله لا صناعة صورة «الشخص المنضبط».

قد تكون البداية الليلة أيسر مما تتصور: أن تغلق ما يؤخر نومك، وتتهيا لصلاة تؤديها بوعي، ثم تحفظ للفجر وأهلك وعملك حقوقهم. وإذا فاتتك ليلة فعد؛ فالغاية أن تبقى صلتك بالله، وأن تنمو عبادتك في حياة تؤدي فيها الحقوق.

الفصل السادس: الزكاة وأمانة الأداء

هناك فرق بين أن يكون المال في يد الإنسان، وأن يعتقد أن كل ما في يده صار له وحده بلا حق متعلق به. الزكاة تربى المسلم على هذا الفرق مرة بعد مرة. فهو يكسب، ويدخر، ويتاجر، ويخطط، ثم يأتي حق لا يتركه لتقلب المزاج ولا لكرم اللحظة: حق له شروط، ومقادير، ومصارف، ووقت.

ولهذا فإن الزكاة من أوضح العبادات التي تكشف معنى الانضباط المالي في الإسلام. ليست تبرعاً اختيارياً يقدمه الإنسان عندما يشعر بالسخاء، وليست ضريبة نفسية يدفع بها شعور الذنب، وليست مسابقة في كثرة ما يخرج أمام الناس. هي عبادة وحق منظم. والانضباط فيها يبدأ من أمر يبدو بسيطاً لكنه يكشف الكثير: أن تعرف مالك كما هو، وأن تعرف ما وجب فيه، وأن تؤدي الحق إلى موضعه من غير تأخير متعمد ولا تحايل ولا انتقاء لما لا ترضاه لنفسك.

قال الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.⁴⁵ فالزكاة ليست عملية حسابية منفصلة عن تزكية النفس. لكن

هذا المعنى الروحي لا يلغي الحساب، بل يمر من خلاله: حتى تؤدي الحق تحتاج أن تعرف النصاب، ونوع المال، والمدة في المواضع التي تعتبر فيها، والمقدار، والمستحق. هنا يلتقي القلب بالنظام؛ فلا تصبح العبادة أرقامًا بلا معنى، ولا يصبح المعنى دعوى بلا أداء.

حق محدد، لا كرم موسمي

حدد القرآن مصارف الزكاة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۖ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾.⁴⁶

هذه الآية وحدها تكسر فكرة أن صاحب المال يملك أن يصرف الزكاة كيف شاء لمجرد أن نيته خير. هناك مصارف شرعية، وتفاصيل فقهية في تطبيقها، وبعض الصور المعاصرة تحتاج إلى سؤال أهل العلم والجهات الموثوقة. لكن الأصل واضح: ليس المال الذي وجبت فيه الزكاة مساحة مفتوحة لرغبة المالك.

روى ابن عباس رضي الله عنهما:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى الْيَمَنِ قَالَ: إِنَّكَ تَقْدُمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلُ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللَّهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللَّهَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً تُؤْخَذُ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا فَخُذْ مِنْهُمْ، وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ».⁴⁷

الزكاة عبادة وحق يصل أهل القدرة بالمستحقين، وتؤدي على وجهها دون ظلم للآخذ أو المعطي.

وهنا يظهر معنى مهم في صناعة الإنسان المنضبط: بعض الحقوق لا تنتظر أن تشعر بها. قد يكون الإنسان في آخر العام منشغلاً، أو متعلقاً بماله، أو يرى مصروفات كثيرة تنتظره، أو يؤجل حتى «تتحسن الظروف». لكن كون الحق محدداً في الشرع يعني أن المشاعر لا تعيد تعريفه.

47 من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم الحديث ١٤٥٨

الإنسان الذي يؤدي التزاماته فقط حين يكون مرتاحًا لا يزال رهين حاله. أما الذي يتعلم أن يفرق بين ما أملكه اختياريًا وما يجب علي أدائه فقد دخل بابًا أعمق من الانضباط.

أن تعرف ما عندك جزء من الأمانة

لا يستطيع الإنسان أن يؤدي حقًا ماليًا لا يعرف أساسه. ولهذا فإن الفوضى المالية قد تتحول من مجرد ضعف إداري إلى عائق أمام عبادة واجبة. من لا يعرف كم يملك، ولا ما له من ديون مرجوة، ولا ما عليه من التزامات، ولا متى دخل المال، قد يصل إلى موعد الزكاة وهو يبحث في رسائل قديمة وحسابات متناثرة، ثم يخمن.

هذا لا يعني أن الشريعة أوجبت تطبيقًا أو جدولًا إلكترونيًا معينًا. الأداة التنظيمية ليست عبادة في ذاتها. يمكن للإنسان أن يسجل في ورقة، أو ملف، أو برنامج، أو يستعين بمحاسب. المقصود أن يبني من التنظيم ما يعينه على معرفة الواقع الذي سيبنى عليه الحكم.

ومن هنا يمكن فصل مرحلتين ينبغي ألا تختلطا:

الأولى **مرحلة جمع الحقائق**: ما الأموال الموجودة؟ متى ملكتها؟ ما طبيعتها؟ ما الديون؟ ما الموجود للتجارة؟ ما الذي تغير خلال العام؟

والثانية مرحلة الحكم الشرعي: أي هذه الأموال تجب فيها الزكاة؟ كيف يحسب النصاب؟ كيف تعامل الديون؟ متى يبدأ الحول في الصورة المعينة؟ وما حكم المال المتجدد أو الأسهم أو الصناديق أو البضاعة أو الرواتب المدخرة؟

المرحلة الأولى يستطيع صاحب المال أن ينجزها بدقة. أما الثانية فقد تحتاج إلى فقيه أو جهة زكوية موثوقة بحسب تعقيد الحالة. الانضباط هنا ليس أن يفتي الإنسان نفسه بسرعة، بل أن يجهز الوقائع ثم يسأل السؤال الصحيح.

النصاب يمنع المزاج من تعريف الوجوب

قال رسول الله ﷺ:

«لَيْسَ فِيمَا دُونَ خُمْسٍ ذُوْدٌ صَدَقَةٌ مِنَ الْإِثْلِ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خُمْسٍ أَوَاقٍ صَدَقَةٌ، وَلَيْسَ فِيمَا دُونَ خُمْسَةٍ أَوْسُقٍ صَدَقَةٌ».⁴⁸

المقصود في هذا الفصل ليس تحويل هذه المقادير القديمة إلى حاسبة معاصرة للقارئ؛ فالأوزان والقيم وتطبيق النصاب على النقود المعاصرة باب فقهي يحتاج إلى تحرير. لكن وجود

48 من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة،

باب زكاة الورق، رقم الحديث ١٤٤٧

النصاب نفسه يعلم معنى مهمًّا: للوجوب حد لا يصنعه الشعور.

قد يقول غني: «لا أرى أن مالي كثير». وقد يقول آخر: «أنا مستعد أن أخرج شيئًا وإن لم يجب». الثاني له باب الصدقة النافلة، أما الأول فلا يملك أن يجعل إحساسه الشخصي معيارًا للوجوب. فوجود النصاب يخرج المسألة من التقييم النفسي إلى حكم منضبط.

وروى أنس رضي الله عنه:

«أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كَتَبَ لَهُ هَذَا الْكِتَابَ لَمَّا وَجَّهَهُ إِلَى الْبَحْرَيْنِ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. هَذِهِ فَرِيضَةُ الصَّدَقَةِ الَّتِي فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَالَّتِي أَمَرَ اللَّهُ بِهَا رَسُولُهُ، فَمَنْ سُئِلَهَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى وَجْهِهَا فَلْيُعْطَهَا، وَمَنْ سُئِلَ فَوْقَهَا فَلَا يُعْطِ. فِي أَرْبَعٍ وَعِشْرِينَ مِنَ الْإِبِلِ فَمَا دُونَهَا مِنَ الْغَنَمِ مِنْ كُلِّ خَمْسٍ شَاةٌ، إِذَا بَلَغَتْ خَمْسًا وَعِشْرِينَ إِلَى خَمْسٍ وَثَلَاثِينَ فَفِيهَا بِنْتُ مَخَاضٍ أَنْثَى، فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَثَلَاثِينَ إِلَى خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ فَفِيهَا بِنْتُ لَبُونٍ أَنْثَى، فَإِذَا بَلَغَتْ سِتًّا وَأَرْبَعِينَ إِلَى سِتِّينَ فَفِيهَا حِقَّةٌ طَرَوْقَةُ الْجَمَلِ، فَإِذَا بَلَغَتْ وَاحِدَةً وَسِتِّينَ إِلَى خَمْسٍ وَسَبْعِينَ فَفِيهَا جَذَعَةٌ، فَإِذَا بَلَغَتْ يَغْنِي سِتًّا وَسَبْعِينَ إِلَى تِسْعِينَ فَفِيهَا بِنْتُ لَبُونٍ، فَإِذَا بَلَغَتْ إِحْدَى

وَتَسْعِينَ إِلَى عَشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِيهَا حِقَّتَانِ طُرُوقَتَا الْجَمَلِ، فَإِذَا زَادَتْ عَلَى عَشْرِينَ وَمِائَةٍ فَفِي كُلِّ أَرْبَعِينَ بِنْتُ لَبُونٍ، وَفِي كُلِّ خَمْسِينَ حِقَّةٌ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ مَعَهُ إِلَّا أَرْبَعٌ مِنَ الْإِبِلِ فَلَيْسَ فِيهَا صَدَقَةٌ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا، فَإِذَا بَلَغَتْ خَمْسًا مِنَ الْإِبِلِ فَفِيهَا شَاةٌ، وَفِي صَدَقَةِ الْغَنَمِ فِي سَائِمَتِهَا إِذَا كَانَتْ أَرْبَعِينَ إِلَى عَشْرِينَ وَمِائَةٍ شَاةٌ، فَإِذَا زَادَتْ عَلَى عَشْرِينَ وَمِائَةٍ إِلَى مِائَتَيْنِ شَاتَانِ، فَإِذَا زَادَتْ عَلَى مِائَتَيْنِ إِلَى ثَلَاثِمِائَةٍ فَفِيهَا ثَلَاثُ، فَإِذَا زَادَتْ عَلَى ثَلَاثِمِائَةٍ فَفِي كُلِّ مِائَةٍ شَاةٌ، فَإِذَا كَانَتْ سَائِمَةُ الرَّجُلِ نَاقِصَةً مِنْ أَرْبَعِينَ شَاةً وَاحِدَةً فَلَيْسَ فِيهَا صَدَقَةٌ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا، وَفِي الرِّقَّةِ رُبْعُ الْعُشْرِ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ إِلَّا تِسْعِينَ وَمِائَةً فَلَيْسَ فِيهَا شَيْءٌ، إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبُّهَا».⁴⁹

في الكتاب مقادير تتغير بتغير نوع المال وعدده؛ فلا يقدرها المالك بمزاجه. وحين تتعدد صور ماله، يجمع وقائعها ويعرف حكم كل صنف قبل الأداء.

وهذا التفريق مهم؛ لأن الانضباط لا يعني بساطة زائفة. ليس كل شيء يحل بقاعدة واحدة. الشخص المنظم لا يبحث عن

49 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب زكاة الغنم، رقم الحديث ١٤٥٤

جملة واحدة يطبقها على كل أمواله، بل يصنف المال أولاً، ثم يعرف حكم كل صنف.

الوقت جزء من الحق

قال الله تعالى:

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۚ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾. [الأنعام: ١٤١].⁵⁰

وقال رسول الله ﷺ:

«فِيمَا سَقَتِ السَّمَاءُ وَالْعُيُونُ أَوْ كَانَ عَثَرِيًّا الْعُسْرُ، وَمَا سَقَى بِالنَّضْحِ نِصْفُ الْعُسْرِ».⁵¹

هذا الباب له تفاصيل فقهية لا يستوعبها هذا الفصل، لكن فيه درس واضح: بعض الحقوق المالية مرتبط بحدث معين، وليس كل مال ينتظر نهاية سنة واحدة بالطريقة نفسها.

50 القرآن الكريم، سورة الأنعام: ١٤١

51 من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب العشر فيما يسقى من ماء السماء وبالماء الجاري، رقم الحديث ١٤٨٣

وعن علي رضي الله عنه، في رواية أبي داود:

«فَإِذَا كَانَتْ لَكَ مَائَتَا دِرْهَمٍ وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ فَفِيهَا خَمْسَةٌ دَرَاهِمَ وَلَيْسَ عَلَيْكَ شَيْءٌ - يَعْنِي فِي الذَّهَبِ - حَتَّى يَكُونَ لَكَ عِشْرُونَ دِينَارًا فَإِذَا كَانَ لَكَ عِشْرُونَ دِينَارًا وَحَالَ عَلَيْهَا الْحَوْلُ فَفِيهَا نِصْفُ دِينَارٍ فَمَا زَادَ فَبِحِسَابِ ذَلِكَ. قَالَ: فَلَا أُدْرِي أَعَلَيْي يَقُولُ فَبِحِسَابِ ذَلِكَ. أَوْ رَفَعَهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَلَيْسَ فِي مَالٍ زَكَاةٌ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ. إِلَّا أَنْ جَرِيرًا قَالَ: ابْنُ وَهْبٍ يَزِيدُ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَيْسَ فِي مَالٍ زَكَاةٌ حَتَّى يَحُولَ عَلَيْهِ الْحَوْلُ».⁵²

الزمن معتبر في الأموال التي يشترط لها الحول، فلا يختار صاحب المال موعدًا إداريًا ثم يحمل عليه أحكام الأنواع كلها. هنا تقع مشكلة معاصرة شائعة: يختار الإنسان يومًا في رمضان لأنه الأسهل في التذكر، ثم يتعامل مع كل ما يملك كأن حكمه واحد. اختيار تاريخ ثابت للتنظيم قد يكون نافعًا في بعض الحالات، لكنه أداة تنظيم لا يغير الأحكام. قد توجد أموال لها حول، وأموال لها حكم عند الحصاد، وأموال تتغير

52 من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ سنن أبي داود، كتاب الزكاة،

باب في زكاة السائمة، رقم الحديث ١٥٧٣

تفاصيلها بحسب سبب التملك وطبيعته. لذلك يجب أن تخدم
الأداة الحكم، لا أن تعيد الأداة تشكيل الحكم.

لا تنتقِ الرديء لتؤدي به حقًا

قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا
كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ
تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ۚ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ
غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.⁵³

والآية أوسع من أن نجعلها تفصيلًا وحيدًا لكل أحكام الزكاة،
لكنها تضع ميزانًا أخلاقيًا لا ينبغي أن يغيب: لا تجعل ما لا
تحبه لنفسك هو المادة التي تتخلص بها من حق الآخرين.

ووصية معاذ المتقدمة تحفظ حق صاحب المال كذلك؛ فلا
يتهرب المالك بدفع الرديء تحايلًا، ولا يتجاوز الآخذ
فيستولي على أجود المال ظلمًا.

هذا التوازن مهم جدًا في فهم الانضباط الإسلامي. ليس
الانضباط المالي أن تكون صارمًا مع طرف ومتساهلاً مع
طرف آخر. الحق مضبوط من جهتين: المكلف لا يبخس،
والجامع لا يظلم.

وهذه الفكرة تمتد إلى الحياة اليومية. كثير من الفوضى الأخلاقية تبدأ حين يرى الإنسان الحق من زاويته وحده. إذا كان له مال عند الناس طالب بالدقة والموعد، وإذا كان للناس مال عنده طلب التساهل والتأجيل. الزكاة تدرب النفس على أن تعترف بحق ليس نابغاً من رغبتها، وأن تؤديه وهي قادرة على أن تحتفظ بالمال لنفسها.

الزكاة لا تعني أن كل المال متاح للصدقة

قد يندفع شخص متأثراً بفضل الإنفاق فيخرج مبالغ كبيرة ثم يعجز عن نفقة واجبة، أو يسد الزكاة من مال لا يملك التصرف فيه، أو يخلط بين مال الشركة وماله الشخصي، أو يأخذ من حقوق شركاء ليتصدق باسم الجميع. هذه ليست مجاهدة محمودة لمجرد أن وجهتها خير.

أداء الزكاة يحتاج إلى **حدود الملكية والحقوق**. كما أن البخل لا يبرر منع الحق، فإن الحماسة لا تبرر التصرف في حق غيرك. وإذا كان المال مشتركاً، أو مرتبطاً بشركة، أو فيه حقوق دائنين وشركاء، فتعقيد الواقع يزيد الحاجة إلى ضبط الحساب والسؤال الفقهي، لا إلى قرار عاطفي سريع.

وهنا يظهر الفرق بين الصدقة النافلة والزكاة. النافلة بابها واسع في الأصل، لكن الزكاة لها شروط ومصارف ومقايير.

فمن الخطأ أن يقول الإنسان: «أنا أتصدق طوال السنة، فلا حاجة أن أحسب الزكاة». الصدقات التطوعية لا تتحول تلقائيًا إلى أداء للواجب لمجرد أن مجموعها كبير، كما أن دفع مبلغ كبير بلا نية وحكم صحيحين لا يغني بالضرورة عن الزكاة. تفاصيل النية والتعجيل والاحتساب ترجع إلى الفقه.

القاعدة التربوية التي نحتاجها هنا بسيطة: لا تستبدل الواجب بعمل تحبه أكثر. فقد يحب الإنسان العطاء في مشروع ظاهر، لكنه يتناقل عن حساب الحق الذي وجب عليه. وقد يحب أن يختار المستفيد بنفسه، بينما الحكم يقيده بمصرف معتبر. الانضباط أن تضع الواجب أولاً، ثم توسع في النافلة بعده.

حالة تطبيقية: صاحب متجر لا يعرف ما الذي يزكيه

هذه حالة افتراضية للتوضيح، وليست فتوى.

لدى رجل متجر صغير. في حسابه الشخصي مدخرات، وفي المتجر بضاعة، وله مبالغ عند عملاء، وعليه مستحقات لموردين، ويشترى أحيانًا ذهبًا لزوجته، وله استثمار صغير في صندوق مالي. اعتاد كل رمضان أن ينظر إلى رصيد حسابه البنكي فيخرج ٢.٥% منه، ثم يطمئن أنه أدى الزكاة.

قد يكون قد أصاب في بعض المال وأخطأ في بعضه. المشكلة الأولى ليست في نيته، بل في أن صورة المال عنده غير مكتملة. لا يعرف ما الذي يدخل أصلاً في الحساب، ولا حكم الديون، ولا البضاعة، ولا الاستثمار، ولا الذهب، ولا بدايات الملك المختلفة.

ما الذي يفعله قبل أن يطلب جواباً فقهياً؟

يجمع قائمة الأموال بحسب نوعها، ويسجل قيمتها أو كميتها في التاريخ المطلوب، ويفصل ما يملكه شخصياً عما تملكه المنشأة أو الشركاء، ويحصر الديون له وعليه، ويحدد متى تملك الأموال التي يتوقف حكمها على الزمن. بعد ذلك يعرض الوقائع على جهة موثوقة لتحديد الحكم.

هذه الخطوة لا تحل الفقه، لكنها تمنع سؤالاً مبهماً من نوع: «عندي أموال كثيرة، كم أخرج؟». كلما كانت الوقائع أدق كان تنزيل الحكم أدق.

ولو تبين أن بعض ما كان يخرج كل عام صدقة نافلة لا زكاة، فلا يعني ذلك أن المال ضاع؛ له أجره إن شاء الله بحسب النية والقبول، لكن الواجب يحتاج إلى أداء صحيح. ولو تبين أنه كان يخرج أكثر من الواجب في موضع، فلا يجعل هذا ذريعة لإهمال موضع آخر حتى يتعلم حكمه.

ماذا نقيس في التنظيم المالي، وماذا لا نقيس؟

في المجلد التدريبي الأخير يمكن أن توجد أدوات تساعد على أداء الزكاة، لكن ينبغي أن تقيس السلوك الإداري الظاهر لا التدين الباطن. يمكن أن يسجل الإنسان: هل اكتمل حصر الأصول؟ هل عُرف تاريخ الاستحقاق؟ هل سُئلت الجهة المختصة عن المسائل المعقدة؟ هل أُدي المبلغ في الموعد؟ هل حُفظ إثبات الأداء عند الحاجة؟

هذه مؤشرات لتنفيذ مهمة. لا تقول لنا: كم تطهر القلب؟ ولا كم بلغ الإخلاص؟ ولا هل قُبِلت العبادة؟

بل حتى «الدقة» نفسها لا ينبغي أن تتحول إلى وسواس مالي. المطلوب ضبط معقول يحقق العلم بالمال والحق، لا إعادة الحساب عشرات المرات خوفًا بلا سبب. وإذا كانت الحالة معقدة، فالاستعانة بمحاسب أو مستشار زكوي أو عالم ليس ضعفًا في الانضباط، بل قد يكون عين الانضباط؛ لأنك تعترف بحدود معرفتك.

حين يصبح الموعد عادة نافعة

يمكن للتنظيم أن يخدم العبادة إذا بقي تابعًا لها. من النافع مثلًا أن يضع الإنسان موعدًا سنويًا لمراجعة أمواله التي يناسبها ذلك، وتنبيهًا قبل الموعد بمدة لجمع البيانات، وملفًا

يحفظ فيه ما تغير خلال العام. لكن هذه الوسائل لا تصبح سنة شرعية ولا تلزم غيره.

ويمكن أن يقسم العمل إلى مراحل: جمع البيانات، مراجعة الأحكام، الحساب، اختيار القنوات الموثوقة للمصارف المستحقة، ثم الأداء والتوثيق. بهذه الطريقة لا يصل يوم الاستحقاق وهو يبدأ من الصفر.

المداومة هنا ليست أن يدفع المبلغ نفسه كل سنة، فالمال يتغير. وليست أن يكرر العملية نفسها حرفيًا مهما تغيرت حياته. المداومة هي أن يحافظ على أمانة المراجعة والأداء: إذا توسعت أعماله زاد نظامه، وإذا تعددت استثماراته استعان بمن يفهمها، وإذا تغيرت الأحكام التنظيمية أو الظروف سأل من جديد.

من عبادة المال إلى تربية النفس

الزكاة تمس موضعًا شديد الحساسية في النفس: الملك. الإنسان يتعب في جمع المال، ويخطط لما سيفعله به، ويشعر بالأمان حين يزيد. ثم تأتي العبادة لتقول له إن جزءًا من علاقته بالمال محكوم بأمر أعلى من رغبته.

هذا لا يجعل المال مذمومًا، ولا النجاح المالي محل ريبة. بالعكس، وجود مال يبلغ حد الوجوب قد يكون نعمة واسعة.

لكن النعمة لا تكتمل أخلاقياً بأن تعرف كيف تكسب فقط؛ بل بأن تعرف ما الحق الذي يتعلق بما كسبت.

وهنا تتصل الزكاة بفكرة السلسلة كلها. الانضباط ليس أن تدير وقتك فحسب، ولا أن تستيقظ مبكراً، ولا أن تنفذ خطتك الشخصية. هذه أمور قد تكون نافعة، لكن الامتحان الأعمق هو: ماذا تفعل عندما يتعارض ميلك مع حق ثابت؟ هل تعيد تعريف الحق ليلائم راحتك، أم تعيد ترتيب راحتك لتؤديه؟

في الصلاة رأينا الوقت، وفي الصيام رأينا البداية والنهاية، وفي الذكر رأينا الفرق بين المقيّد والمطلق، وفي قيام الليل رأينا المداومة مع الرفق. وفي الزكاة نرى شيئاً آخر: الانضباط الذي يخرج من داخل النفس إلى حقوق الناس.

فالمال الذي تحبه يصبح موضع عبادة. والحساب الذي قد تراه جافاً يصبح طريقاً لأداء حق. والموعد الذي قد تؤجله يصبح أمانة. والمستحق الذي قد لا تعرفه شخصياً يصبح داخل دائرة التكليف. وهكذا يتعلم الإنسان أن الاستقامة ليست شعوراً عاماً، بل وفاء متكرر بما وجب حين يجب، وبالمقدار الذي يجب، وفي الموضع الذي شرع.

الفصل السابع: الحج: الزمان والمكان والجماعة

الحج عبادة لا يستطيع الإنسان أن يعيد تشكيلها بحسب راحته. له زمن، وأمكنة، وانتقالات، وشعائر، ومحظورات، وأعمال يؤديها المرء في وسط جموع كبيرة تتحرك معه إلى المقاصد نفسها. ولهذا يبدو الحج، من زاوية صناعة النفس، مدرسة شديدة الوضوح في الانضباط الذي يربط الإرادة بوقت ومكان وطريقة، ثم يختبر الأخلاق داخل الزحام.

لكن اختزال الحج في هذا المعنى خطأ. الحج قبل كل شيء عبادة لله وشعيرة من شعائر الدين، لا دورة في إدارة الوقت ولا تدريبًا جماعيًا على اللوجستيات. إنما ننظر في هذا الفصل إلى بعض ما تكشفه العبادة من معانٍ تربوية، مع بقاء المقصد التعبدي أصلًا لا تابعًا.⁵⁴

قال الله تعالى:

﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُخْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ

54 القرآن الكريم، سورة الحج: ٢٧-٣٢، خاصة ٢٧ و٣٢

أَوْ نُسْكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ
مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ
إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ
الْعِقَابِ} ⁵⁵

كلمة «لله» تمنع منذ البداية أن يتحول التنظيم إلى الغاية. قد
ينجح الحاج في حملاته ومواعيده وتنقلاته، لكنه إن نسي أنه
جاء عابداً فقد أمسك بالقشرة وترك القلب. وقد يكون الحاج
بطيئاً لكبر سن أو مرض أو ظرف، ومع ذلك يكون أصدق
عبادة ممن يتحرك بسرعة لكنه يؤذي الناس أو يخاصمهم.

الفكرة التي نحتاجها هنا ليست: «كن منضبطاً لأن الحج
منظم». بل أعمق من ذلك: تعلم أن تخضع حركتك لنظام
العبادة، وأن تحفظ الأخلاق حين تضيق المساحة ويكثر
الناس وتتعارض الرغبات.

شعيرة لا جدول رحلة

قال الله تعالى:

﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمُهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾⁵⁶

جمعت الآية بين الزمن والأخلاق. فليست القضية أن تعرف متى تبدأ الأعمال فحسب؛ بل أن يتغير سلوكك وأنت داخل هذا الزمن التعبدي. وهذا فرق مهم جدًا. يمكن للإنسان أن يحضر في الوقت ثم يفسد على من حوله بالخصومة، ويمكن أن يحفظ جدول حملته ثم لا يحفظ لسانه، ويمكن أن يلتزم بتعليمات التنقل ثم يدفع ضعيفًا أو يزاحم على موضع لا يحتاج إليه.

الحج إذن لا يربي على التوقيت المجرد، بل على أن يصبح التوقيت جزءًا من طاعة أوسع. فالزمان هنا ليس خانة في التقويم؛ هو حد من حدود العبادة. والمكان ليس نقطة على الخريطة؛ هو موضع شعيرة. والجماعة ليست حشدًا يعطل خطتي الشخصية؛ هم عباد لله لهم حقوق مثلي.

هذه النظرة تمنع خطأين متقابلين. الأول أن يستهين الإنسان بالتفاصيل ويقول: «المهم القلب». والثاني أن يتعامل مع التفاصيل كأنها إجراءات مستقلة عن القلب. القرآن يجمع بين الأمرين: شعائر معلومة وتعظيم لها، وتقوى لا تنالها المقاييس الظاهرة وحدها.⁵⁷

حين يصبح المكان جزءاً من التكليف

من أكثر ما يميز الحج أن أعمالاً كثيرة فيه مرتبطة بأماكن بعينها. يخرج الحاج من موضع إلى آخر، ويقف حيث شرع الوقوف، ويبيت أو يرمي أو يطوف بحسب النسك وأحكامه. وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

«نَحَرْتُ هَا هُنَا، وَمِنَى كُلُّهَا مَنَحَرٌّ، فَانْحَرُوا فِي رِحَالِكُمْ، وَوَقَفْتُ هَا هُنَا، وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ، وَوَقَفْتُ هَا هُنَا، وَجَمَعْتُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ».⁵⁸

هذا مهم من جهة تربوية؛ لأن الالتزام بالمكان لا يعني التعلق بنقطة ضيقة من غير دليل. قد يظن الإنسان أن الانضباط هو

57 القرآن الكريم، سورة الحج: ٢٧-٣٢، خاصة ٢٧ و٣٢؛ القرآن الكريم، سورة

الحج: ٣٦-٣٧

58 من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف، رقم الحديث ١٢١٨، الرواية ج

أن يزاحم حتى يصل إلى الموضع الذي وقف فيه النبي ﷺ بعينه، بينما جاءت السنة نفسها بما يرفع هذا التضييق في مواضع من النسك.

هنا يتعلم المرء معنى نحتاجه خارج الحج أيضاً: الدقة ليست تشدداً. الدقة أن تعرف ما حدده الشرع فتلتزمه، وأن تعرف ما وسعه الشرع فلا تضيقه على نفسك ولا على الناس. من لا يفرق بين الأمرين قد يصبح حريصاً على صورة العبادة ومؤذياً لعباد الله باسم هذا الحرص.

ولهذا لا ينبغي لهذا الفصل أن يتحول إلى دليل مناسك تفصيلي. تفاصيل الحدود والأوقات والرخص والمسارات والتعليمات التنظيمية المعاصرة يرجع فيها الحاج إلى أهل العلم والجهات الرسمية الموثوقة؛ لأنها قد تتعلق بحكم شرعي دقيق أو بتنظيم يتغير بحسب السنة والازدحام والسلامة. المقصد هنا أن نرى كيف يصنع المكان المنضبط نفساً تحترم الحد من غير أن تخترع حداً جديداً.

الانتقال ليس فراغاً بين عبادتين

قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا

هَٰذَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ﴿٥٩﴾ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ
حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٦٠﴾

وقال سبحانه:

﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا
إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ
وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾⁶⁰

اللافت أن الانتقال نفسه حاضر في النص. يفيض الناس،
ويتحركون، ويذكرون الله. ليست العبادة محصورة في لحظة
ساكنة ثم يعود الإنسان إلى «الوقت العادي» بين موضعين.
الطريق جزء من السياق التعبدية.

في الحياة اليومية نتعامل كثيرًا مع الفواصل كأنها أزمنة لا
قيمة لها: الطريق إلى العمل، الانتظار قبل موعد، الانتقال بين
مهمتين، الدقائق التي تسبق اجتماعًا. فنملؤها أحيانًا بتوتر أو
تشتت أو جدال. الحج يقدم صورة مختلفة: الحركة المنظمة
نفسها يمكن أن تكون داخل معنى أكبر.

59 القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٩٨-١٩٩ و ٢٠٣

60 القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٩٨-١٩٩ و ٢٠٣

لكن لا ينبغي أن نستخرج من هذا برنامجًا مصطنعًا يجعل كل دقيقة «منتجة». الإنسان في السفر قد يحتاج إلى النوم والسكوت، والحاج قد يكون مرهقًا أو مريضًا. الدرس ليس أن تمنع الفراغ، بل أن لا تعتبر الفاصل خارج المسؤولية. أخلاقك في الحافلة، وصبرك عند التعطل، وطريقتك في انتظار دورك، كلها تقع داخل حياتك التعبدية وليست هامشًا لا يحاسب عليه الضمير.

الجماعة تختبر الانضباط الذي لا يظهر وأنت وحدك

من السهل نسبيًا أن تبدو منضبطًا في غرفة مرتبة، بموعد اخترته، وأدواتك حولك، ولا أحد ينازعك في المساحة. الحج يضع الإنسان في صورة أخرى: أناس من بلاد ولغات وأعمار وطبائع مختلفة، وطرق مزدحمة، وانتظار، وتأخر محتمل، وتعب، وحر، ومسافات، وأحيانًا اختلاف في الفهم أو الاجتهاد أو ترتيب المجموعة.

هنا يظهر نوع من الانضباط لا تقيسه التطبيقات: هل تستطيع أن تظل صاحب خلق حين لا تسير الأمور على طريقته؟

الآية التي نهت عن الرفث والفسوق والجدال في الحج لا تصف بيئة خالية من أسباب النزاع؛ بل يأتي النهي في عبادة

جماعية عظيمة يمكن أن تقع فيها دوافع كثيرة للجدال.⁶¹
فالقيمة ليست أن لا تجد ما يزعجك، وإنما أن لا تسلم زمامك
لكل استفزاز.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: سمعت النبي ﷺ
يقول:

«مَنْ حَجَّ لِلَّهِ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ، رَجَعَ كَيَوْمَ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ».⁶²
يربط الحديث فضل الحج ظاهراً بحفظ السلوك، فلا يصح أن
يجعل الإنسان العناية بالشعيرة مبرراً لسوء الخلق داخلها.
ولسنا هنا بصدد تفصيل معنى المغفرة وشروطها.

قد يتقدم شخص بغير انتباه، أو تتعطل الحافلة، أو يتأخر
الطعام، أو يخطئ رفيقك في ترتيب أغراضه. ليست كل هذه
الوقائع مسائل شرعية تحتاج جدالاً. كثير منها اختبار صغير
للنفس: هل تجعل راحتك الخاصة معياراً يتقدم على حق
الجماعة؟

61 القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٩٧

62 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الحج، باب
فضل الحج المبرور، رقم الحديث ١٥٢١

النظام الجماعي ليس إلغاءً للشخص

الانضباط الجماعي قد يُفهم خطأً على أنه طاعة عمياء لكل ترتيب بشري. وهذا ليس المقصود. الحاج يتبع الأحكام الشرعية، ويلتزم أنظمة السلامة والتنظيم المشروعة، ويراعي مجموعته، لكنه يظل مسؤولاً عن عبادته وحقوقه وما يقدر عليه.

إذا كان مريضاً أو كبيراً في السن، فليس من الانضباط أن يخفي حاله حتى ينهار كي لا «يعطل المجموعة». وإذا ضاع شخص ضعيف، فليست كفاءة الجدول مقدمة على مساعدته. وإذا طلب من الإنسان فعل يخالف ما يعلم من حكم معتبر، فليس معنى التنظيم أن يسكت عن السؤال.

التربية الناضجة تفرق بين التعاون وإلغاء المسؤولية الفردية. تتعاون لأن الاجتماع يخفف المشقة ويحفظ الأمن ويمنع الفوضى، لكنك لا تجعل المجموعة مصدراً للحلال والحرام. وتسأل بأدب حين تحتاج، ولا تحول كل اختلاف إلى معركة.

وهذا المعنى بالغ الأهمية للمؤسسات أيضاً، وسيأتي بابه لاحقاً: النظام الجيد لا يصنع أشخاصاً بلا ضمير، بل يجعل كل

فرد يعرف دوره وحدوده ووقت التصعيد الصحيح عند الخطأ.

«خذوا مناسككم»: التعلم قبل الارتجال

عن جابر رضي الله عنه أنه قال:

«رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَزِمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: لِنَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ».⁶³

هذا النص يعيدنا إلى أصل مهم في كل عبادة مركبة: تعلم قبل أن ترتجل. الحج ليس مناسباً لأن يصل الإنسان بلا معرفة ثم يقرر في كل موضع ما يبدو منطقياً له. توجد أعمال لا يعرف حكمها بمجرد الذوق، وبعض الأخطاء لا تصلحها النية الحسنة وحدها.

ومن جهة صناعة الانضباط، التعلم المسبق يخفف حمل القرار وقت الضغط. من عرف أصل نسكه، وترتيب أيامه، وما يحتاج إلى سؤال فيه، وأين توجد الرخص في حالته، يدخل

63 من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لنأخذوا مناسككم»، رقم الحديث ١٢٩٧

الموقف بقدر أعلى من السكينة. أما من يؤجل كل شيء إلى لحظته فقد يستهلك نفسه في أسئلة كان يمكن أن يتعلمها قبل السفر.

لكن التعلم نفسه يحتاج ضبطًا. قد يقرأ الحاج عشرات المقاطع القصيرة المتعارضة، فيدخل الحج أكثر ارتباكًا. وقد يحفظ تفاصيل مذهب أو حملة ثم يظنها الصورة الوحيدة في كل مسألة. الأفضل أن يعتمد شرحًا فقهيًا موثوقًا يناسب حالته، وأن يعرف المسائل التي وقع فيها خلاف معتبر، وأن يحدد جهة يرجع إليها عند الإشكال.

ليس الهدف أن يتحول كل حاج إلى باحث فقهي، بل أن يكون مكلفًا واعيًا: يعرف ما لا يسعه جهله، ويعرف أين يسأل عما يجله.

الترتيب مهم، لكنه ليس صنمًا

قد يفهم شخص من الحديث عن الزمن والترتيب أن أي تقديم أو تأخير يساوي انهيار النسك. وهنا تأتي سنة النبي ﷺ لتعلمنا دقة أرفع.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَقَفَ فِي حَجَّةِ الْوَدَاعِ، فَجَعَلُوا يَسْأَلُونَهُ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَمْ أَشْعُرْ فَحَلَقْتُ قَبْلَ أَنْ أَذْبَحَ. قَالَ: أَذْبَحْ وَلَا

حَرَجَ. فَجَاءَ آخَرَ فَقَالَ: لَمْ أَشْعُرْ فَنَحَرْتُ قَبْلَ أَنْ أُرْمِيَ. قَالَ:
ارْمِ وَلَا حَرَجَ. فَمَا سُئِلَ يَوْمَئِذٍ عَنْ شَيْءٍ قُدِّمَ وَلَا أُخِّرَ إِلَّا قَالَ:
افْعَلْ وَلَا حَرَجَ».⁶⁴

لا يجوز أن نحول هذا إلى قاعدة عامة تقول إن ترتيب أعمال
الحج كله غير مهم؛ فهذا تجاوز للنص. ولا أن نستخدمه
لإهمال التعلم. لكنه يكشف أن النظام الشرعي ليس نظاماً آلياً
هشاً تنهار فيه العبادة بمجرد كل خطأ في ترتيب جزئي.
توجد أحكام، وتوجد رخص، وتوجد مواضع عفا فيها الشرع
عن صور مخصوصة.

وهذا معنى تربوي ثمين: الانضباط الحقيقي يحتمل
التصحيح. النظام الذي لا يعرف إلا الكمال أو الفشل يدفع
صاحبه إلى اليأس أو الإنكار. أما النظام الناضج فيعرف
الأصل، فإذا وقع خطأ سأل: ما حكمه؟ كيف أصححه؟ هل فيه
سعة؟ ثم أكمل.

في الحج قد يقع الخطأ بسبب جهل أو نسيان أو ازدحام. وفي
الحياة يقع بسبب مرض أو ظرف أو سوء تقدير. الفرق بين
الشخص المنضبط وغيره ليس أن الأول لا يخطئ، بل أنه لا

64 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري،

كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة، رقم الحديث ١٧٣٦

يجعل الخطأ إذناً بترك الباقي، ولا يصححه من عند نفسه بلا علم.

لا تجعل الوصول إلى الموضع سبباً لإيذاء من فيه

من المفارقات المؤلمة أن يشتد حرص الإنسان على شعيرة حتى يدفعه ذلك إلى أذية إنسان يؤدي الشعيرة نفسها. قد يريد موضعاً أقرب، أو وقتاً أسرع، أو صورة أجمل، أو أن يبقى بجوار رفقته، فيزاحم أو يصرخ أو يقطع طريقاً أو يضيق على ضعيف.

قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾.⁶⁵

تعظيم الشعائر لا ينفصل عن التقوى. وليس من المعقول أن تصبح وسيلة «التعظيم» هدمًا لحق واضح من حقوق الناس.

هذا لا يعني أن كل تزاحم في الحج اعتداء؛ بعض الزحام طبيعي لا يمكن منعه. ولا يعني أن الإنسان يستطيع دائماً أن يختار مساحة واسعة أو توقيتاً مثاليًا. المقصود أن يحاسب نفسه على ما يملكه من سلوك داخل الزحام: هل يدفع بلا

65 القرآن الكريم، سورة الحج: ٢٧-٣٢، خاصة ٢٧ و ٣٢

حاجة؟ هل يقتحم الصف؟ هل يرفع صوته لإثبات حق يمكن أن يطلبه بهدوء؟ هل يراعي الكبير والطفل والمريض؟ وقد تكون أعظم مجاهدة في لحظة ما أن تتنازل عن موضع محبب لتمنع أذى، لا أن تصل إليه بأي ثمن. هذه ليست دعوة إلى ترك السنة أو الشعيرة، بل إلى أداء ما شرع ضمن حدود ما شرع من الأخلاق والحقوق.

الشعيرة لا تقاس بالمشهد الخارجي وحده

في سياق الهدى قال الله تعالى:

﴿لَنْ يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ﴾⁶⁶

هذه الآية تمنعنا من الوقوع في آفة شائعة في كل مشروع انضباط: أن يصبح الشكل هو المقياس الكامل. في الحج توجد صور ظاهرة عظيمة: لباس، طواف، وقوف، انتقال، هدي، رمي. لكن لا يجوز لنا أن نبني جدولاً يزعم أنه يقيس «تقوى الحج» من عدد الخطوات أو دقة المواعيد.

66 القرآن الكريم، سورة الحج: ٣٦-٣٧

يمكن أن نقيس أمورًا تنظيمية: هل عرف الحاج خطة يومه؟ هل حمل ما يحتاجه دون إسراف؟ هل وصل إلى نقطة التجمع؟ هل التزم تعليمات السلامة؟ هل حفظ أدوية يحتاجها؟ هذه قياسات لخدمة الأداء. أما القلب والقبول والتقوى فلا تختصر في لوحة متابعة.

بل قد يكون الإفراط في القياس نفسه مشتتًا. حاج يقضي وقتًا طويلًا في تسجيل كل حركة أو تصوير كل مرحلة قد يخرج من حضور العبادة إلى مراقبة نفسه. ليست كل لحظة بحاجة إلى إثبات.

الانضباط الذي تخدمه هذه السلسلة لا يريد تحويل الحياة إلى شاشة بيانات؛ يريد أن يستخدم البيانات حين تنفع، ثم يعرف متى يضع الهاتف جانبًا ويعبد الله.

حالة تطبيقية: حاج يريد أن ينفذ «الخطة المثالية»

هذه حالة افتراضية للتوضيح وليست فتوى في المناسك.

رجل قرأ كثيرًا قبل الحج، وصنع ملفًا دقيقًا فيه مواعيد كل انتقال، والطرق التي يفضلها، والأماكن التي يريد الوصول إليها، والمدة المتوقعة لكل عمل. دخل الحج وهو يظن أن نجاحه يعني مطابقة الخطة دقيقة بدقيقة.

في اليوم الأول تأخرت الحافلة. في اليوم التالي اختلف مسار الدخول بسبب تنظيم الحشود. أحد رفقته كان كبيراً في السن فصار أبطأ. عند موضع آخر وجد زحاماً شديداً. بدأ الرجل يغضب من كل تغير؛ يلوم الحملة، ويستعجل رفيقه، ويجادل العاملين، ويشعر أن حجه «يتخرب» لأن الخطة لا تسير.

ما الخطأ هنا؟ ليس في التخطيط. التخطيط كان نافعاً. الخطأ أنه حول الأداة إلى معيار للعبادة.

كان يمكن أن تكون خطته من مستويين: مستوى ثابت يتعلم فيه الواجبات والأركان والحدود التي لا يقررها بنفسه، ومستوى مرن يضع فيه المواعيد التشغيلية والمسارات ونقاط اللقاء والهوامش الزمنية. فإذا تغير المستوى التشغيلي بقي الأصل محفوظاً.

وكان يمكن أن يسأل نفسه عند كل تغير: هل هذا التغير يمس حكماً شرعياً يجب أن أسأل عنه، أم هو تغير تنظيمي يمكن استيعابه؟ هل سلامة رفيقي الآن أهم من الوصول المبكر؟ هل التأخر الذي لا أملكه يستحق أن أضيع بسببه لساني وهدوئي؟

بهذا يصبح التخطيط خادماً للحج بدل أن يصبح الحاج خادماً لخطة كتبها قبل أن يرى الواقع.

إدارة الطاقة جزء من الأمانة

الحج عبادة بدنية وفيه مشي وانتقال وسهر أو تغير في النوم والبيئة. وبعض الناس يدخلونه بعقلية التحدي: يريد أن يفعل كل نافلة، ويمشي كل مسافة، ويرفض كل وسيلة تخفيف، ويعد التعب علامة على أنه يبذل أكثر.

هذه النظرة تحتاج تصحيحًا. المشقة ليست مقصدًا في ذاتها. قد توجد مشقة ملازمة للعمل، ويصبر عليها الإنسان، لكن لا يصنع مشقة إضافية ليثبت صدقه. المريض له أحكامه، والكبير له حاجاته، والضعيف له من الرخص والتنظيم ما يناسبه بحسب حاله.

ومن الانضباط أن يعرف الحاج أدويته، وماءه، ونومه، وقدرته على المشي، وأن يخبر من معه بالحالة التي تحتاج مساعدة. لا نستخدم التعطيش أو الحرمان من الطعام أو النوم تدريبًا على المجاهدة. وإذا ظهرت أعراض مرض أو إنهاك فالمسألة ليست «ضعف إرادة»؛ قد تكون حاجة صحية تستدعي توقفًا أو رعاية.

هذا المعنى متصل بما مر في قيام الليل: لا تجعل النافلة أو الحماسة تبتلع حق الجسد. وفي الحج يزداد الأمر أهمية لأن الخطأ قد يقع وسط زحام ومسافات كبيرة.

كيف يعود الحاج من هذه المدرسة؟

لو انتهى أثر الحج عند آخر يوم، لفاتت تربية عظيمة. لكن لا ينبغي أيضًا أن نطالب الحاج بعد عودته بأن يحول حياته كلها إلى نسخة من برنامج الحج. المقصود أن يسأل: ما الذي تعلمته عن نفسي وأنا مقيد بزمان ومكان وجماعة؟

ربما اكتشف أنه يغضب عند التأخير. أو أنه يتعب من كثرة القرارات الصغيرة. أو أنه يرتاح حين يستعد من الليلة السابقة. أو أنه لا يسأل حتى تتفاقم المشكلة. أو أنه يحسن التعاون إذا عرف دوره بوضوح. هذه ملاحظات سلوكية يمكن أن يستفيد منها بعد الحج.

يمكن أن ينقل إلى حياته ثلاثة معانٍ عملية من غير أن يدعي أنها «أحكام مستخرجة من الحج»:

أولها: ضع للواجبات الثابتة مكانًا قبل الاختيارات المرنة. كما أن هناك في الحج حدودًا لا تغيرها رغبتك، توجد في حياتك حقوق وفرائض لا ينبغي أن يبتلعها جدول العمل أو الترفيه.

ثانيها: اترك هامشًا للواقع. الخطة التي لا تحتل أي تأخر أو مرض أو حاجة إنسان آخر ليست خطة قوية؛ هي خطة هشة.

ثالثها: قس أخلاقك عند الاحتكاك، لا كفاءتك وأنت وحدك فقط. قد يكون الإنسان منظمًا جدًا في مكتبه لكنه يفقد

انضباطه حين ينتظر أو يختلف أو يزدحم مع الناس. هنا تبدأ مرحلة أخرى من صناعة النفس.

هذه تطبيقات تربوية مقترحة، لا مناسك جديدة ولا وعودًا بنتائج نفسية مثبتة. وظيفتها أن تساعد القارئ على ترجمة الدرس إلى سلوك يمكن ملاحظته.

من الحج إلى المعاملة

في الفصول السابقة رأينا العبادة من زوايا متعددة: الصلاة علمتنا الوقت والاستعداد والأداء، والطهارة أظهرت الحد بين الإتمام والوسواس، والصيام جمع الإمساك بالبداية والنهاية مع حفظ اللسان، والذكر فرّق بين المقيّد والمطلق، وقيام الليل جمع المجاهدة بالرفق، والزكاة نقلت الانضباط إلى حق مالي يتعلق بالناس.

الحج يجمع كثيرًا من هذه العناصر في مشهد واحد: وقت، ومكان، وبدن، ومال، وجماعة، وانتقال، وتعلم، وأخلاق. لكنه يفتح سؤالاً أهم من كل ذلك: هل يبقى أثر العبادة حين تخرج من حدود الشعيرة إلى السوق والبيت والعمل والطريق؟

قد يكون الإنسان منضبطًا أيام الحج لأنه في بيئة استثنائية، ثم يعود إلى بلده فيعود إلى التأخير والخصومة والتعدي على

الدور وإهمال الحقوق. هنا لا نقول إن حجه لم يقبل؛ هذا حكم لا نملكه. لكننا نستطيع تربوياً أن نسأل عن انتقال الأثر السلوكي: هل تعلم شيئاً بقي معه؟

وهذا هو الجسر إلى الفصل التالي. فالمقصود من دراسة العبادات في مشروعنا ليس أن نستعملها كحيل إنتاجية، بل أن نفهم كيف تربي الإنسان على العبودية، ثم كيف يمكن أن يظهر صدق هذه التربية في المعاملة دون أن نزعّم قياس ما في القلب.

الحج في هذا المعنى مدرسة مكثفة: تذهب إلى الله مع الناس، لا بعيداً عنهم. تتقرب إليه في مكان مزدحم بحقوقهم. تتعلم أن تكون عبداً منظماً، لكنك تتعلم في الوقت نفسه أن النظام الذي لا يحمل رحمة وعدلاً وضبطاً للسان لم يكتمل أثره بعد.

الفصل الثامن: كيف يصل أثر العبادة إلى المعاملة؟

عن أبي هريرة رضي الله عنه:

«أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَرَّ عَلَى صُبْرَةٍ طَعَامٍ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهَا، فَنَالَتْ أَصَابِعُهُ بَلَلًا، فَقَالَ: مَا هَذَا يَا صَاحِبَ الطَّعَامِ؟ قَالَ: أَصَابَتْهُ السَّمَاءُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: أَفَلَا جَعَلْتَهُ فَوْقَ الطَّعَامِ كَي يَرَاهُ النَّاسُ؟ مَنْ غَشَّ فَلَيْسَ مِنِّي».⁶⁷

لم يبق معنى الأمانة هنا كلمة يحبها البائع والمشتري. صار فعلاً يمكن أن يراه الناس: أن يظهر ما يؤثر في معرفتهم بالسلعة، وألا يترك الظاهر الجميل يحجب ما يحتاجون إلى معرفته. هذا موضع من مواضع الاستقامة قد يبدو صغيراً: يد تنقل الطعام المبتل إلى الأعلى. لكنه يكشف الفرق بين أن نوقر الصدق في أنفسنا، وأن نعطيه حقه حين قد يكلفنا شيئاً من المال.

هناك، عند الفعل الذي يمس حق غيرك، يظهر السؤال الذي يرافقنا بعد الصلاة والصيام والزكاة والحج: كيف تخرج

67 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - "من غشنا فليس منا"، رقم الحديث ١٠٢

المعاني التي نحبها من دائرة التأثير إلى دائرة المعاملة؟ كيف يكون للخشوع أثر في الكلام، ولتعظيم أمر الله أثر في الوعد، وللخوف من الحساب أثر في مال نستطيع تأخيرها، أو عيب نستطيع إخفاءه؟

ليس المطلوب أن نبحت عن منفعة دنيوية تبرر العبادة. نحن نعبد الله لأنه ربنا، ثم نرجو أن تصلح بعبادته قلوبنا وأعمالنا. إنما السؤال عن الفجوة التي نراها في أنفسنا: قد يلين القلب في موضع، ثم يقسو اللسان في موضع آخر. وقد نستعد للصلاة قبل وقتها، ثم نعطي إنساناً موعداً ونحن لا نعرف كيف سنفي به. لا تحتاج هذه الفجوة إلى يأس، ولا إلى تبرير؛ تحتاج إلى صدق يحددها، وعمل يصل ما انقطع.

حياة واحدة، لا تدين في مكان ومعاملة في مكان آخر

قال الله تعالى:

﴿أَتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾⁶⁸

68 القرآن الكريم، سورة العنكبوت: ٤٥

وبين السعدي في تفسيرها صلة إقامة الصلاة بشروطها وأركانها وخشوعها بازدياد الإيمان والرغبة في الخير والانكفاف عن الشر، مع بيان أن ما فيها من ذكر الله مقصد عظيم.⁶⁹ فالعبادة ليست حركة معزولة لا شأن لها بما يليها من اليوم.

وفي آية البر قال الله تعالى:

﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾.⁷⁰

تجتمع في الآية أصول الإيمان، وبذل المال، وإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، والوفاء بالعهد، والصبر. هذا الجمع يرد الحياة

69 عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، تفسير

سورة العنكبوت: ٤٥

70 القرآن الكريم، سورة البقرة: ١٧٧

إلى أصلها الواحد: رب نتقرب إليه، وأوامر نمتثلها، وحقوق لا تصبح مباحة لأن أصحابها خارج المسجد.

ومن هنا يبدأ التصحيح: لا تقل عن أمانة الوظيفة إنها شأن إداري فقط، ولا عن وعدك لأهلك إنه تفصيل لا صلة له بما تطلبه من صلاح. ليس معنى ذلك أن لكل ترتيب بشري حكم العبادة، أو أن كل خطأ مهني معصية؛ بل أن في أعمالنا العادية حقوقًا وأوامر شرعية، وأن السؤال عنها جزء من سؤال الاستقامة، لا ملف منفصل عنه.

الثمرة ليست تصريحًا بالحكم على القلوب

قد يسيء إنسان بعد عبادة، فنحتاج إلى إنكار إساءته، لا إلى ادعاء معرفة مصير عبادته. وقد يحسن في موقف، فنحمد إحسانه، ولا نزعم أننا عرفنا قدر إخلاصه. السلوك الذي وقع بين أيدينا شيء، والحكم على ما عند الله شيء آخر.

قال رسول الله ﷺ:

«أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟» قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ. فَقَالَ: «إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا

عَلَيْهِ، اخَذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطَرَحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طَرَحَ فِي النَّارِ».⁷¹

يضع الحديث أمامنا تحذيرًا شديدًا، فلا يصح اتخاذ كثرة العبادة حجة لإسكات المظلوم، أو ضمانًا بأن حقه قد سقط. ولا يقودنا هذا إلى الطرف المقابل: أن يترك المقصر عبادته حتى يحسن أخلاقه أولًا. الطريق ليس تفريطًا جديدًا يضاف إلى القديم؛ بل محافظة على العبادة، وتوبة من الإساءة، وتصحيح لما يمكن تصحيحه. ومن كان صادقًا في طلب الإصلاح لا يحتاج أن يدافع عن كل ما صدر عنه كي يحفظ صورة حسنة لنفسه.

اسأل عن فعلك سؤالًا تستطيع الإجابة عنه: هل أخفيت معلومة؟ هل أخّرت حقًا مع قدرتي؟ هل آذيت إنسانًا؟ ثم عالج الجواب. أما تحويل كل مراجعة إلى سؤال مرهق عن قبول العمل وخفايا القلب فقد يصرفك عن حق واضح تستطيع أدائه الآن.

71 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، رقم الحديث ٢٥٨١

لماذا نفهم المعنى ولا ننتبه إلى موضعه؟

أحياناً لا تكون المشكلة أن الإنسان ينكر قيمة الصدق؛ بل أنه لم يسمّ ما يفعله كذباً. يقول لصاحبه: «انتهيت من العمل» وهو يعني أنه ينوي البدء فيه قريباً. أو يترك المشتري يفهم من كلامه ميزة ليست موجودة، ثم يطمئن لأنه لم ينطق بجملة صريحة خاطئة. هنا لا يكفي تكرار محبة الصدق؛ نحتاج إلى فحص الصورة التي وصل بها الكلام إلى الآخر.

وفي بحوث التعلم يسمى استخدام ما تعلمناه في موقف جديد **انتقال أثر التعلم**. يعرض تقرير «كيف يتعلم الناس» أهمية الفهم، وتنوع الأمثلة، والتعرف على المواضيع التي يصلح فيها المعنى؛ فقد يعرف المتعلم إجراءً في سياق ثم لا يستعمله في سياق آخر.⁷² هذه خلاصة تربوية عن التعلم، وليست تجربة تثبت أثر عبادة بعينها في الأخلاق.

والاستفادة المقترحة منها هنا أن نتعلم رؤية الصلة. إخفاء البلب في الطعام واقعة لها صورتها، لكن سؤال البيان لا ينتهي عند الطعام: ماذا يحتاج صاحب الحق أن يعرفه حتى لا

72 المجلس القومي للبحوث، كيف يتعلم الناس: الدماغ والعقل والخبرة والمدرسة — الطبعة الموسعة، الفصل الثالث: التعلّم وانتقال أثره، ص ٥١-٧٨؛

خاصة ٦٢-٦٣ و ٧٧-٧٨؛ سنة ٢٠٠٠

يخدعه الظاهر؟ قد يكون عيبًا في سلعة، أو حدًا في خدمة، أو نقصًا في خبرتك. تختلف الأحكام التفصيلية، ويبقى عليك أن تتعلم ما يلزمك بيانه في عملك، لا أن تكتفي بإعجابك بأمانة البائع في القصة.

للمكان القديم عاداته أيضًا

قد يعود المرء من موسم عبادة بعزم صادق، ثم يجلس في المجلس نفسه الذي اعتاد فيه السخريّة، فينساق مع الحديث قبل أن ينتبه. وقد يدخل مكتبه فيجد الرسائل والطلبات وطريقة العمل نفسها، فيرجع إلى الوعود السريعة التي أراد التخلص منها. ليس وصف هذا النمط إعفاء من المسؤولية؛ إنه بحث عن الموضوع الذي يحتاج إلى تغيير.

درست وود وتام وغويريرو ويت عادات طلاب انتقلوا إلى جامعة جديدة، في الرياضة وقراءة الصحف ومشاهدة التلفاز. وارتبط استمرار بعض العادات باستمرار جوانب من ظروف أدائها. كانت الدراسة رصدية واعتمدت تقارير المشاركين، وأقر الباحثون بالحاجة إلى تجارب لتقوية الاستنتاج

السببي.⁷³ فلا ننقل نتائجها إلى العبادة مباشرة، ولا نجعلها تفسيراً وحيداً للتقصير.

لكنها تدعونا إلى سؤال عملي نافع: ما الذي ما زال يستدعي الفعل القديم؟ من يريد حفظ لسانه قد يحتاج إلى تغيير مشاركته في مجلس يؤذي فيه الناس، لا إلى زيادة تأثيره خارج المجلس وحده. ومن يريد ضبط وعوده قد يحتاج إلى فتح جدول العمل قبل الموافقة، بدل أن يوافق سريعاً ثم يحاول الوفاء بما لا يتسع له يومه.

لا تجعل الشعور الصالح يقوم مقام الفعل الصالح

قد يخرج الإنسان من موعظة وقد عزم أن يكون أرحم بأهله. هذه بداية محمودة، لكنها لا تجيب وحدها عن موقف المساء: ماذا سيفعل حين يقاطعه طفله، أو يختلف معه شريك حياته، أو يسمع طلباً وهو متعب؟ إن بقيت الرحمة عنده شعوراً واسعاً، فقد لا يجد طريقها حين يضيق صدره.

قرب المعنى من موقف تعرفه. بدل أن تقول: «سأكون رحيماً»، قل: «عندما أحتاج إلى تأجيل حديث أحد في البيت،

73 ويندي وود؛ ليونا تام؛ ميليسا غيريرو ويت، تغير الظروف وتعطل العادات، مجلة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ٨٨(٦)، ٩١٨-٩٣٣؛ الطريقة، ص ٩٢١ والمناقشة، ص ٩٢٩-٩٣١؛ سنة ٢٠٠٥

سأخبره بموعد قريب أستطيع الوفاء به، ولن أزره كأنه أخطأ بمجرد طلب الكلام». هذا تطبيق مقترح، لا تعريف جامع للرحمة، ولا بديل عن معالجة ظلم أشد إن كان موجوداً. وفي دراسة تجريبية لغولويتزر وبراندشتاير، ساعد تحديد زمان البدء ومكانه على إنجاز مهمة كتابة في الوقت المطلوب لدى المشاركين الذين أعادوا تقاريرهم. لكن كثيراً من المشاركين لم يعيدوها، ولم تكن التجربة اختباراً للأمانة أو أثر العبادة.⁷⁴ نستفيد من تحديد الموقف والفعل بوصفه أداة تنظيمية قابلة للتجربة، لا ضماناً للتحويل ولا وصفة دينية جديدة.

فالنية التي تحب الخير تحتاج أن تعرف أين تبدأ. وقد يكون أول ما يعينها جملة واضحة تقولها قبل أن يأتي الموقف، ثم تراجعها حين ترى ما نفع وما لم ينفع.

⁷⁴ بيتر إم. غولويتزر؛ فيرونیکا براندشتاير، نوايا التنفيذ والسعي الفعّال إلى الأهداف، مجلة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ٧٣(١)، ١٨٦-١٩٩؛ الدراسة الثانية، ص ١٩١-١٩٢؛ سنة ١٩٩٧

ابداً بحق له صاحب

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾⁷⁵

تأمل الوجهة: إلى أهلها. لا تكتمل الأمانة لأنك فكرت فيها طويلاً، أو كتبت عنها في سجل، أو شعرت بالندم على تأخيرها؛ هناك صاحب حق يحتاج إلى وصول حقه.

اختر من واقعك أمراً محدداً: مبلغاً متفقاً على رده، أو وثيقة أو تمتت عليها، أو مهمة يعلم زميلك أنك توليتها، أو موعداً ترتب عليه انتظار. لا تختَر أمراً سهلاً لتجنب حقاً عاجلاً أثقل عليك. البداية الصغيرة نافعة حين تفتح العمل، لا حين تستر الهرب منه.

ثم اسأل ثلاثة أسئلة مترابطة: ما الحق؟ وما الذي يمنع أدائه؟ وما الفعل الذي يوصله؟ قد تحتاج إلى تحويل المال، أو تسليم الوثيقة، أو إبلاغ صاحب المهمة بواقعها دون تزيين. وإذا التبس عليك الحكم، فاجمع الوقائع واسأل من يعلم؛

ليست كل علاقة تعاقدية أو مسؤولية مهنية واضحة بمجرد حسن المقصد.

ولعل هذا من أكثر ما يكشف صدق مراجعتنا: هل نهتم بأن نبدو متحسين، أم بأن يتغير ما يلقاه الناس منا؟ قد لا يعلم أحد أنك بدأت برنامجًا لإصلاح نفسك، لكنه يعرف أن ماله عاد، وأن مواعده احترام، وأن الجواب الذي تلقاه هذه المرة كان صادقًا.

الصدق قبل الوعد أسهل من الاعتذار بعده

أحد المواضع التي تستحق الانتباه هو اللحظة السابقة لالتزام جديد. قد تضيق علينا كلمة «لا أستطيع»، فنختار بدلها وعدًا يريح المحادثة لدقيقة ويثقل أيامًا بعدها. نحن لم نحل المشكلة؛ نقلناها إلى وقت آخر وإلى شخص آخر.

قبل أن تحدد موعدًا، انظر في قدرتك الفعلية: ما الذي التزمت به سابقًا؟ وما الجزء الذي يعتمد على غيرك؟ وما المعلومة التي لم تتحقق منها؟ ليس هذا تعقيدًا لكل وعد، بل قدر من التثبت يناسب أثره. موعد قصير مع صديق ليس كالالتزام يتوقف عليه عمل فريق أو سفر أسرة.

وعندما تكون النتيجة غير مؤكدة، سمّها بما هي عليه: توقعًا، أو موعدًا يحتاج إلى تأكيد، أو التزامًا في حدود معلومة. لا

تستعمل العبارة المطمئنة حتى يفهم الطرف الآخر يقينًا لا تملكه. ومن الأمانة كذلك ألا تجعل التفاصيل الصغيرة ذريعة لإخفاء المعنى المهم بين كلمات كثيرة.

وإن ظهر عائق حقيقي، فلا تنتظر حتى يسأل صاحب الحق مرارًا. أخبره بما تغير، وما الذي تستطيع فعله، وما الخيارات المتاحة. هذا لا يمحو كل أثر للتأخير ولا يسقط حقًا ثابتًا، لكنه يمنع أن يضاف إلى التعثر إخفاء وتعليق للناس على انتظار لا يعرفون نهايته.

الرحمة لا تعني ضياع الحق، والحزم لا يحتاج إلى أذى

قد نظن أن حسن المعاملة يقتضي الموافقة على كل طلب، ثم نعجز عن الوفاء ونغضب ممن طلب. وقد نظن أن حفظ النظام يقتضي أن تكون كلماتنا قاسية. في الحالين نضيّق على أنفسنا طريقًا أوسع: بيان واضح، وحدود عادلة، ولسان محفوظ.

قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِي جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ».⁷⁶

لا يطلب منك هذا أن توافق على خطأ، أو أن تسكت عن حق يجب بيانه؛ بل أن تنظر في كلامك: هل يبين المطلوب، أم يضيف إهانة لا حاجة إليها؟

تستطيع أن تقول لزميلك إن العمل يحتاج إلى تصحيح، دون أن تجعل خطأه وصفًا دائمًا لشخصه. وتستطيع أن ترفض طلبًا لا تقدر عليه، دون أن تسخر من حاجة صاحبه. وتستطيع أن تطالب بمالك، دون أن تجعل المطالبة إذنا للاعتداء. هذه أمثلة لا تحل كل نزاع، لكنها تعيد السؤال إلى فعل تملكه: ما الذي أحتاج إلى قوله، وما الأذى الذي أستطيع الاستغناء عنه؟

76 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم الحديث ٦٠١٨

ويأتي العدل أبعد من دائرة من نحب؛ قال تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾.⁷⁷

فاختلافك مع إنسان لا يبيح أن تنسب إليه ما لم يقل، أو أن تبخسه حقًا تعلمه له.

صورة عملية: وعد يخرج من الفوضى إلى الأمانة

لنتأمل هذه الحالة الافتراضية. رجل يدير عملاً صغيراً، يحرص على الصلاة، ويحب أن يكون نافعاً. كلما اتصل به عميل وعده بالتسليم القريب، ثم طلب من العاملين تعويض الفرق بين ما وعد وما يستطيعون. فإذا تعذر التسليم، أجل الرد، وإذا ألح العميل تضايق من إلحاحه.

بدأت مراجعته من جملة كان يتجنبها: المشكلة ليست أن العملاء لا يصبرون، بل أن بعضهم رتب أمره على كلام غير دقيق. لم يحتج إلى ترك العمل، ولا إلى إعلان تحول كبير. احتاج أولاً إلى معرفة الوعود القائمة: لمن وعد؟ وبماذا؟ ومتى؟ وأيها يستطيع الوفاء به فعلاً؟

77 القرآن الكريم، سورة المائدة: ٨

فصل بين ما يمكن تسليمه، وما يحتاج إلى موعد جديد يقبله صاحبه، وما يترتب عليه حق مالي أو تعاقدى يجب الوفاء به. وفي الموضع الذي لم يعرف حكمه لم يصنع لنفسه مخرجاً من حماسته للإصلاح؛ سأل مختصاً، لأن الاعتذار لا يجيز أن يقرر حقوق الناس بدلاً منهم.

ثم غيّر اللحظة التي تصنع المشكلة. لم يعد يحدد موعداً جديداً قبل مراجعة قدرة التنفيذ. صار لديه سجل واحد للالتزامات، يعرف العامل المسؤول عن تحديثه. وإذا احتاج إلى وعد يعتمد على مورد أو طرف آخر، يبين ذلك بدل أن يقدمه يقيناً. الأداة بسيطة، لكن وظيفتها محددة: أن تمنع الكلمة من الانفصال عن الواقع.

وفي اتصال صعب كاد يرجع إلى عاداته. كان العميل يريد جواباً سريعاً، وهو يريد إنهاء الضغط. هنا احتاج إلى فعل بديل أعده مسبقاً: يشرح ما يعرفه، ويحدد متى يعود بالمعلومة الناقصة، ثم يفي بموعد الجواب. لم يتخذ مهلة التحقق وسيلة للمماطلة؛ فالتنظيم الذي يستعمل للهرب يعيد الخطأ في صورة مهذبة.

وقد تظهر مشكلة أخرى: أن سجل الالتزامات دقيق، لكن العاملين لا يملكون الوقت أو الأدوات. عندها لا يكفي أن

يطلب منهم «مزيداً من الانضباط». عليه أن يعدل قبول الأعمال أو توزيعها أو مواردنا بحسب قدرته وصلاحيته. لا يجوز له أن يصلح صورته أمام العميل على حساب ظلم من يعمل معه.

وحين يراجع التجربة، لا يسأل: كم أصبحت صالحاً؟ يسأل: هل قلت الحقيقة عند قبول العمل؟ وهل وصل ما التزمت به؟ وهل أخبرت المتضرر بالتغير في الوقت المناسب؟ وما الحق الذي ما زال ينتظر؟ هذه أسئلة لا تحكم على قبول صلاته، لكنها تمنعه من أن يجعل حبه للصلاة ستاراً يحجب به خلل معاملته.

ولا تنتهي الحالة بوعد بأن العمل سيزدهر فوراً. قد يخسر طلباً حين يذكر المدة الصحيحة، وقد يحتاج إلى وقت لاستعادة ثقة تضررت. مكسبه الذي يستطيع أن يبدأ به الآن هو أن لا يشتري رضا اللحظة بوعد لا يملك الوفاء به.

الإصلاح يشمل ما وقع، لا ما سيقع فقط

من السهل أن نقول: «لن أكرر ذلك». والأصعب أن نعود إلى الأثر الذي تركناه. قال رسول الله ﷺ:

«مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لِأَحَدٍ مِنْ عَرَضِهِ أَوْ شَيْءٍ، فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لَا يَكُونَ دِينَارٌ وَلَا دِرْهَمٌ؛ إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ

أُخِذَ مِنْهُ بِقَدَرٍ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتٍ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ». ⁷⁸

لهذا لا يكفي تنظيم مواعيدك المقبلة إن كان عندك مال مستحق تستطيع رده ثم تؤخره. وقد قال النبي ﷺ: «مَظْلُ الْغَنِيِّ ظُلْمٌ». ⁷⁹

أما المعسر فقال الله تعالى فيه:

﴿وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. ⁸⁰

ليس المعسر الذي يعجز عن الأداء هو المماطل القادر؛ وتمييز الحال جزء من العدل، سواء كنت صاحب الدين أو من عليه الدين.

وفي غير المال قد يحتاج الإصلاح إلى تصحيح معلومة خاطئة نشرتها، أو الاعتذار عن إساءة، أو إعادة عمل ناقص، بحسب الحق والضرر والحكم. ولا تجعل حسن نيتك في

78 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب

من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له، هل يبين مظلمته، رقم الحديث ٢٤٤٩

79 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب في

الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم الحديث ٢٤٠٠

80 القرآن الكريم، سورة البقرة: ٢٨٠

الإصلاح سببًا لأذى جديد؛ فالمسائل التي تتعلق بالأعراض والحقوق المتنازعة تحتاج إلى علم وحكمة، ولا تستوعبها عبارة عامة.

احذر أيضًا أن يتحول الاعتذار إلى مطالبة أخرى للمظلوم: أن تطلب منه طمأنتك، أو قبول تفسيرك فورًا، أو الشهادة لك بحسن التغير. اعتذارك عمل تؤديه أنت؛ أما مشاعره وثقته وحقوقه فليست شيئًا تسترده بمجرد أنك شعرت بالندم.

راقب الأثر من غير أن تحوّل الناس إلى درجات

قد تعينك متابعة قصيرة على رؤية ما يفوتك. يمكنك أن تختار أسبوعًا لمراجعة خلق محدد، لا لأن للأسبوع هنا فضيلة خاصة، بل لأنه موعد يسهل عليك تذكره. دون موقفًا واحدًا عند الحاجة: ماذا حدث؟ وما الذي فعلته؟ وما الذي يحتاج إلى تصحيح؟ ثم عد إلى حياتك.

لا يكفي عدّ المرات دون النظر في الظروف. قد يقل غضبك لأنك لم تقابل أحدًا، لا لأنك أحسنت عند الخلاف. وقد تنجز مواعيد قليلة لأنها كانت سهلة، ثم يظهر الخلل عند أول ضغط. انظر إلى الموقف الذي جربت فيه المعنى، وإلى العائق الذي واجهته، لا إلى الرقم وحده.

ولا تجعل من حولك مراقبين دائمين لإصلاحك، أو تجمع عنهم تفاصيل لا تحتاج إليها. قد يكفي سؤال رفيق تثق به عن تصرف محدد، مع تقبل جوابه دون دفاع سريع. وإذا عاد الخل، فابحث: هل نسيت؟ هل كان وعدك أكبر من قدرتك؟ هل لم تعرف الحكم؟ هل اخترت راحتك على حق واضح؟ اختلاف السبب يقتضي اختلاف المعالجة.

وإذا كان السبب مرضًا أو إنهاكًا أو اضطرابًا يحتاج إلى رعاية، فلا تختصره في ضعف إرادة. تنظيم الالتزامات وطلب المساعدة المناسبة قد يكونان جزءًا من أداء الأمانة، لا هروبًا منها. والمسؤولية العادلة ترى القدرة كما هي، ثم تطلب العمل الذي يدخل فيها.

حين يعود المعنى معك إلى اليوم العادي

ليست ثمرة الصحة مع هذه المعاني أن تبقى متأثرًا في كل ساعة. قد تخفت حرارة الشعور، ويبقى أثر أصدق منها في فعل تؤديه: تبين عيبًا، أو تحفظ لسانك، أو تقول «لا أعرف»، أو ترد حقًا، أو تراجع وعدًا قبل أن يعلق به إنسان رجاءه.

ولا يلزم أن يبدأ التصحيح بمشروع واسع. ابدأ من موضع تعرف أنك تحتاج فيه إلى الصدق. تعلم حكمه، وسمّ حق صاحبه، واستعد للحظة التي اعتدت أن تفرط فيها، ثم انظر ماذا وقع. وإذا أخطأت، فعد إلى التصحيح من غير أن تسمي الخطأ نجاحًا، ومن غير أن تسمي نفسك عاجزًا عن كل خير.

هكذا لا تكون العبادة ذكرى جميلة خارج ساعات العمل. تبقى عبادة لله، ويصحبك ما تعلمته من تعظيم أمره إلى السوق والبيت والطريق. ولا تصبح المعاملة بديلاً من الصلاة، ولا الصلاة عذرًا في المعاملة؛ إنما يجتمع لك طلب واحد: أن تستقيم لله حيث كنت، وأن يجد أصحاب الحقوق من صدقك ما يجاوز الكلمات.

الفصل التاسع: يوم من هدي النبي في التعليم والعمل

القدوة في اليوم العادي

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾. [الأحزاب: ٢١].⁸¹

نجد في هدي النبي ﷺ ما يصل العباداة بالتعليم وخدمة الأهل وتحمل المسؤولية. وفي هذه المشاهد نتعلم كيف يأخذ كل حق موضعه، وكيف يجتمع وضوح الواجب مع الرفق بمن نعلمه ونعمل معه. وقد يحتاج الإنسان إلى هذا المعنى في يومه العادي أكثر مما يحتاج إلى خطة استثنائية لا تتكرر.

صباح يبدأ بعبادة، ثم يبقى فيه متسع للناس

عن سماك بن حرب أنه قال: «قُلْتُ لِجَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ: أَكُنْتُ تُجَالِسُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ كَثِيرًا، كَانَ لَا يَقُومُ مِنْ مُصَلَّاهُ الَّذِي يُصَلِّي فِيهِ الصُّبْحُ أَوْ الْغَدَاةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ،

81 القرآن الكريم، سورة الأحزاب، الآية ٢١، الاقتداء برسول الله ﷺ

فَإِذَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ قَامَ، وَكَانُوا يَتَحَدَّثُونَ فَيَأْخُذُونَ فِي أَمْرِ
الْجَاهِلِيَّةِ فَيُضْحَكُونَ وَيَتَبَسَّمُونَ⁸².

في هذا المجلس اجتمعت العبادة والصحة. جلس النبي ﷺ بعد الصلاة، وتحدث أصحابه فيما مضى، وضحكوا وتبسم. يجد القارئ هنا مكاناً للأنس في حياة جادة تحمل العلم والعمل.

وهنا يظهر معنى دقيق في التربية. قد يظن المعلم الجاد أن كل دقيقة يجتمع فيها بطلابه يجب أن تمتلئ بمعلومة، وأن الصمت أو الحديث المباح إضاعة لفرصة التعليم. لكن الإنسان لا يتعلم وهو آلة تستقبل التوجيه بلا انقطاع. المجلس الذي يجمع العبادة والصحة والسكينة قد يكون أقدر على حفظ القلوب من مجلس يثقل عليها بالمواعظ حتى تنفر.

قد يكون في اليوم موضع عبادة، وموضع تعليم، وموضع حديث مباح، وكل واحد منها يؤدي على وجهه. ولا يلزم أن تمتلئ مجالسنا بالتوجيه المتصل حتى تكون نافعة.

82 من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، رقم الحديث ٦٧٠، الرواية أ

ولمراجعة مجالسك اسأل: هل جعلت برنامجي مزدحمًا حتى صار من حولي لا يجدون مني إلا توجيهًا؟ وهل أترك في مجالس أهلي وطلابي مساحة طبيعية للأنس والسؤال والحديث، أم أتعامل معهم كأن وجودهم أمامي فرصة لأكمل قائمة ما أريد أن أقوله؟

المعلم لا يستهلك المتعلم بحجة كثرة الخير

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَتَخَوَّلُنَا بِالْمَوْعِظَةِ فِي الْأَيَّامِ، كَرَاهَةَ السَّامَةِ عَلَيْنَا».⁸³

الخبر قصير، لكنه يضع قيدًا قويًا على حماسة المعلم: مصلحة التعليم لا تنفصل عن قدرة المتعلم على تلقيه.

التخول هنا ليس ترك العلم، بل مراعاة وقت الموعظة حتى لا يمل الناس.

وعن أنس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «يَسْرُّوْا وَلَا تُعَسِّرُوْا، وَبَشِّرُوْا وَلَا تُنْفِّرُوْا».⁸⁴

83 من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث ٦٨

84 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم

لا يعني التيسير حذف الحكم الذي يثقل على النفس، ولا تحويل الواجب إلى اختيار؛ فالتيسير المشروع شيء، وتغيير الدين لإرضاء المتلقي شيء آخر. لكن النص يمنع أن تصبح خشونة الطريقة أو كثرة الكلام علامة على قوة التعليم.

المعلم قد يعرف عشر فوائد في مسألة واحدة، ولا يلزم أن يلقيها كلها على مبتدئ في جلسة واحدة. والأب قد يريد أن يصلح في ابنه خمسة أخطاء، ولا تكون الحكمة دائماً أن يصححها كلها في الدقيقة نفسها. والمدير قد يرى جوانب كثيرة تحتاج إلى تعديل، لكن جمعها في خطاب غاضب قد يجعل الموظف يخرج وهو لا يعرف أي فعل يبدأ به.

حسن التوقيت جزء من حسن التعليم. وقد يكون من الانضباط أن تؤجل كلمة نافعة إلى وقت أنفع، لا لأن الحق تغير، بل لأنك تريد أن يصل.

والأمر يحتاج إلى ميزان. فالمربي قد يتخذ «عدم إزعاج المتعلم» ذريعة إلى ترك التصحيح كله. ليس هذا هو المراد. الذي أمامنا نبي ﷺ علم ووجه وأمر ونهى، ومع ذلك راعى السّامة. الجمع بين البيان والرفق أصدق من اختيار طرف واحد: إما كلام لا ينقطع، أو صمت يترك الخطأ بلا تعليم.

حين لا يكفي الأمر: علم الأداء نفسه

عن أبي هريرة رضي الله عنه: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَدَخَلَ رَجُلٌ فَصَلَّى، فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَرَدَّ وَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ، فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ. فَرَجَعَ يُصَلِّي كَمَا صَلَّى، ثُمَّ جَاءَ فَسَلَّمَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: ارْجِعْ فَصَلِّ فَإِنَّكَ لَمْ تَصَلِّ، ثَلَاثًا. فَقَالَ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أَحْسَنُ غَيْرَهُ فَعَلَّمَنِي. فَقَالَ: إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تيسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ، ثُمَّ ارْكَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَ رَاكِعًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَعْتَدِلَ قَائِمًا، ثُمَّ اسْجُدْ حَتَّى تَطْمِئَنَ سَاجِدًا، ثُمَّ ارْفَعْ حَتَّى تَطْمِئَنَ جَالِسًا، وَافْعَلْ ذَلِكَ فِي صَلَاتِكَ كُلِّهَا».⁸⁵

لقد مر هذا الحديث في فصل الصلاة من جهة الطمأنينة، أما هنا فننظر إليه من جهة التعليم. كان هناك أداء ناقص، ولم يكن إصلاحه بعبارة عامة مثل «أحسن صلاتك». حين ظهر أن الرجل لا يعرف صورة الأداء الصحيحة انتقل التعليم إلى تفاصيل يفعلها: كبر، اقرأ، اركع حتى تطمئن، ارفع حتى تعتدل، واسجد حتى تطمئن.

85 من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، رقم الحديث ٧٥٧

حين طلب الرجل التعليم، جاءه بيان يستطيع العمل به. وعلى المربي أن يبين الخطوة التي يحتاج إليها متعلمه، ويختار من العرض والممارسة ما يعينه على إتقانها.

كم مرة نصف شخصاً بأنه مهمل بينما لم نحدد له ما يعنيه الإتمام؟ نقول للطفل: «رتب غرفتك»، وللموظف: «أرسل تقريراً أفضل»، وللطالب: «راجع بجد»، ثم نغضب لأن الصورة في رؤوسنا لم تنتقل إلى رؤوسهم. قد يكون بعض التقصير اختياريًا فعلاً، لكن جزءاً من المشكلة قد يكون أن التعليم نفسه بقي غامضاً.

السؤال الذي يأخذه المربي من هذا المشهد ليس: كيف أكرر الأمر بصوت أعلى؟ بل: هل يعرف المتعلم كيف يؤدي ما أطلبه؟ إذا لم يعرف، فالتعليم جزء من المسؤولية. وإذا عرف ثم ترك، انتقلنا إلى سؤال آخر يتعلق بالاختيار والمداومة والحقوق. جمع الحالتين في وصف واحد يحرمننا من العلاج الصحيح لكل واحدة.

المتعلم لا يبقى متلقياً إلى الأبد

عن مالك بن الحويرث رضي الله عنه قال: «أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَّا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا أَوْ

قَدْ اسْتَقْنَا، سَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا فَأَخْبَرَنَا، قَالَ: ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظَهَا أَوْ لَا أَحْفَظَهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصْلِي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ وَلْيُؤَمِّمْكُمْ أَكْبَرُكُمْ».⁸⁶

هذا الخبر يضيف إلى صورة التعليم معنى آخر: نهاية مرحلة التلقي ليست نهاية المسؤولية؛ قد تكون بداية نقل العلم إلى الناس. هؤلاء الشباب لم يبقوا حول المعلم لأن البقاء في مجلسه أرفع صورة دائماً. جاء وقت يعودون فيه إلى بيوتهم، يحملون ما تعلموه إلى من وراءهم.

وفي الخبر أيضاً انتباه إلى حالهم الإنساني. لم يعامل الشوق إلى الأهل كعلامة ضعف في طلب العلم. سألهم عن أهلهم، ثم وجههم إلى الرجوع والتعليم. وتختلف مدة التعلم بحسب ما يحتاج إليه المتعلم، ويبقى نفع أهله بما تعلمه أباً من المسؤولية.

لكننا نستطيع أن نسأل أنفسنا: هل يصنع تعليمنا اعتماداً دائماً على المعلم، أم يهيئ المتعلم ليؤدي وحده ثم ينفع غيره؟

86 من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، رقم الحديث

بعض البرامج تنجح في إبقاء المشاركين فيها، ولا تنجح في جعلهم أقدر خارجها. وكلما احتاج المتعلم إلى صوت المدرب في كل خطوة، وجب أن نسأل هل انتقلت المهارة حقًا أم بقيت معلقة بالمجلس.

والانتقال إلى التعليم لا يعني أن المتعلم صار عالمًا في كل شيء. مالك رضي الله عنه نقل ما علمه، ولم يمنحه الخبر سلطة على ما لم يتعلمه. وهذه قاعدة تحفظ من آفة شائعة: أن يتعلم الإنسان بابًا فيظن أن نجاحه فيه جعله مرجعًا في كل أبواب الحياة.

ترتيب المسؤولية قبل تكثير التعليم

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي أَمْوَالِهِمْ، تُؤْخَذُ مِنْ أَعْيَانِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ».⁸⁷

87 من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث ١٣٩٥

المسؤولية تحتاج إلى معرفة ما يقدم وما يؤخر، وما الحق الذي لا يختلط بغيره. لم يكن معاذ ذاهبًا إلى أرض جديدة بقائمة موضوعات يلقيها بلا ترتيب، بل بتوجيه يحدد أصولًا ومراحل وحقوقًا.

ويظهر من تعيين الأخذ والمصرف أن تنفيذ النظام مرتبط بحقوق الناس، فلا تكون الكفاءة غطاء للظلم. يستطيع عامل الزكاة أن يجمع المال بكفاءة عالية ثم يعتدي في اختياره أو أخذه؛ فلا يصبح إنجاز الإجراء عذرًا في تضييع الحق الذي وُضع الإجراء لخدمته.

وفي التعليم كذلك، ترتيب المادة لا يكفي إن صار المتعلم وسيلة لإثبات نجاح البرنامج. قد تلتزم بالخطة بدقة، وتفشل في حفظ كرامة من تعلمه. وقد تنهي المنهج في موعده، بينما بقي بعض الطلاب لا يعرفون الأصل الذي بُني عليه ما بعده. التنظيم الجيد هو الذي يخدم المقصد ولا يبتلعه.

المسؤولية العامة لا تجعل الظاهر باطنًا ولا الخطأ حقًا

روت أم سلمة رضي الله عنها:

«عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه سمع خصومة بباب حجرته، فخرج إليهم، فقال إنما أنا بشر وإنه يأتيني الخصم،

فلعل بعضكم أن يكون أبلى من بعض، فأحسب أنه صدق، فأقضي له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هي قطعة من النار، فليأخذها أو فليتركها».⁸⁸

في هذا الخبر تواضع عجيب أمام حدود الإجراء. القضاء له بيناته وأحكامه، لكن صدور الحكم بناء على ما ظهر لا يحول الباطل في نفس الأمر إلى حق لصاحبه. القدرة على عرض الحجة قد تؤثر في ما يسمعه القاضي، لكنها لا تغير الحقيقة عند الله.

وهذا يضع أمام العامل في أي مسؤولية درسًا شديد الأهمية: **النظام لا يعفي الضمير من الأمانة.** قد يملك الإنسان ورقة نظامية، أو توقيعًا، أو موافقة صدرت بناء على معلومات ناقصة، ولا يعني ذلك أن ما عرف في نفسه أنه ليس له صار حلالًا لمجرد أن الإجراء أعطاه إياه.

كما يعلم المسؤول ألا يدعي علم ما لم يبلغه. النبي ﷺ يبين أنه يقضي على نحو ما يسمع. وفي مراجعة عملك تذكر أن قرارك ينبغي أن يبنى على المعلومات التي يحق لك الاعتماد عليها، مع وعي بحدود ما تعرف. وإذا ظهرت معلومات تغير

88 من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم الحديث ٢٤٥٨

الحق، لم يكن الانضباط أن تدافع عن القرار القديم لأنه صدر منك.

في العمل الحديث قد يصل المدير إلى نتيجة من تقرير ناقص، أو يقرأ شكوى بصياغة قوية ويظن أنها الحقيقة كلها. الواجب الإجرائي يختلف بحسب المجال، لكن الفضيلة واحدة: ألا تجعل بلاغة العرض بديلاً من التحقق الذي تملكه، وألا تستعمل صلاحيتك لتجميل ما تعرف أنه ظلم.

البيت ليس فراغاً بين الأعمال الكبيرة

عن الأسود قال: «سَأَلْتُ عَائِشَةَ: مَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَصْنَعُ فِي أَهْلِهِ؟ قَالَتْ: كَانَ فِي مِهْنَةِ أَهْلِهِ، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ قَامَ إِلَى الصَّلَاةِ».⁸⁹

خدمة الأهل حاضرة في هذا الهدى؛ فلا تجعل الأعمال الكبرى عذراً دائماً للانصراف عمن تعيش معهم.

كان في مهنة أهله، ثم إذا حضرت الصلاة خرج إليها. يجتمع في سطر واحد حق البيت وحق العبادة، بلا حاجة إلى خصومة مصطنعة بينهما. لا يعني ذلك أن كل دقيقة توزع

89 من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، رقم الحديث ٦٠٣٩

بالتساوي، ولا أن مسؤوليات الناس متطابقة؛ إنما يعني أن البيت نفسه موضع عمل وأمانة.

وقد يحسن الإنسان إدارة مؤسسة ويترك وراءه في البيت شخصاً يحمل عنه كل التفاصيل لأنه يرى وقته أثمن. وقد يكثر من البرامج النافعة ثم لا يشارك في حاجة قريبة يقدر عليها. ومع اختلاف توزيع المسؤوليات بين الأسر، ينبغي أن نراجع استعلاء بعض الأعمال على بعض: هل صرنا نحقر خدمة لا يراها الناس لأنها لا تدخل في صورة الإنجاز العام؟

وعندما يحضر حق له وقت، ينتقل الإنسان إليه. هذه ليست حركة بين بندين متنافسين، بل حياة تتعدد فيها الأمانات. الانضباط ليس أن يختار حقاً واحداً ويجعله يبتلع الجميع؛ بل أن يعرف متى يكون هنا ومتى ينتقل إلى هناك.

الرفق يظهر أكثر حين تطول الصحبة

عن أنس رضي الله عنه قال: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فَمَا قَالَ لِي أَوْ، وَلَا: لِمَ صَنَعْتَ؟ وَلَا: أَلَا صَنَعْتَ؟».⁹⁰

90 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، والسخاء، وما يكره من البخل، رقم الحديث ٦٠٣٨

هذا خبر عن عشرة أعوام، لا عن لحظة قصيرة نجح فيها الإنسان في ضبط انفعاله. ولذلك له وزن خاص في باب المعاملة. من السهل أن يظهر المرء حسن خلقه في لقاء عابر؛ أما الصحبة الطويلة والعمل المتكرر فهما المكان الذي تتكشف فيه عاداته حين يتعب ويضيق الوقت وتتكرر الأخطاء.

ولا يصح أن نفهم الحديث على أنه ترك للتعليم أو عدم وجود توجيه؛ فقد ثبتت عنه صلى الله عليه وسلم أوامر وتصحيحات كثيرة، وبعضها مر معنا في هذا الفصل. المعنى أن التصحيح لا يحتاج إلى إذلال العامل أو المتعلم، وأن كثرة المسؤولية ليست ترخيصاً دائماً للفظاظة.

يمكن للمدير أن يراجع خطأ، وللأب أن يصحح، وللمعلم أن يطلب إعادة العمل، ويبقى السؤال: هل يحتاج الحق إلى هذه الإهانة التي أضفتها؟ كثير من القسوة لا تزيد التعليم وضوحاً، بل تجعل المخطئ مشغولاً بالدفاع عن نفسه أكثر من فهم ما ينبغي إصلاحه.

والرفق هنا لا يعني أن يغيب معيار الأداء. الرجل الذي لم يحسن الصلاة علّمه النبي صلى الله عليه وسلم. والخصوم سمعوا تحذيراً شديداً من أكل الحقوق. ومعاذ تلقى تكليفاً وحدوداً. فالهدي

يجمع بين وضوح الحق وحسن المعاملة، وهذا الجمع أصعب وأثمر من أن نستبدل أحدهما بالآخر.

معالم تحملها إلى عملك

تتكامل في هذه المشاهد معالم تعينك على مراجعة عملك وتعليمك.

أولها أن العبادة مركز اليوم لا زينة على هامشه. الفجر والصلاة حاضران، لكنهما لا يمتنعان مجلسًا إنسانيًا ولا خدمة أهل، ولا يجعلان بقية اليوم أقل شأنًا في الأمانة.

وثانيها أن التعليم فعل له توقيت وطريقة. الموعظة لا تُفرق المتعلم، والأداء الغامض يتحول إلى خطوات معلومة، والطالب يتقدم من المشاهدة إلى التطبيق، ثم من التلقي إلى أن يعلم أهله بما علمه.

وثالثها أن المسؤولية لا تبرر تجاوز الحق. العامل المبعوث يتلقى حدودًا تمنع الظلم، والحكم الظاهر لا يحول حق أخيك إلى حقك، وكفاءة الإجراء لا تعفي من الصدق في المادة التي يدخلها الإجراء.

ورابعها أن البيت جزء من الأمانة. خدمة الأهل لا تقف خارج صورة الإنسان الجاد، كما أن الصلاة لا تذوب في مطالب البيت. تتجاوز الحقوق، ويحتاج كل واحد منها إلى موضعه.

وخامسها أن الرفق ليس ضد الحزم. يمكن أن ترد المتعلم إلى إعادة العمل، وتعلّمه الصفة، وتحذّر من الظلم، ثم تبقى في معاملتك رحيماً لا تجعل الأذى وسيلة للتربية.

وسادسها أن الإنسان المنضبط لا يدعي أكثر مما يعرف. المعلم يعرف متى يحتاج إلى شرح، والمسؤول يعرف أن ما بين يديه هو ما سمعه ورآه، والمتعلم يعرف أن رجوعه إلى أهله بالتعليم لا يجعله عالماً بكل شيء. هذه الحدود لا تنقص من العمل؛ هي التي تحفظه من الغرور.

راجع يومك من جهة الحقوق

اجعل هذه المعاني مرآة ليومك. حين تقوم من عبادة، اسأل ما الحق التالي. حين تعلم، اسأل هل اخترت وقتاً يستطيع فيه المتعلم أن يسمع. حين ترى خطأ، اسأل هل صاحبه يعرف الأداء الصحيح. حين تحمل صلاحية، اسأل ما المعلومات التي بنيت عليها قرارك وما حدودها. وحين تعود إلى بيتك، لا تتعامل معه كأنه المساحة التي لا تحتاج إلى أمانة لأن الناس لا يرونها.

وفي نهاية اليوم اسأل: هل ظهر في يومي شيء من هذا الهدى: عبادة في موضعها، وتعليم يراعي الناس، وعمل يحفظ الحقوق، وبيت لا يُهمل، ولسان لا يجعل الحزم أذى؟ وتظهر ثمرة ذلك في يوم عادي لا يعرف الناس أكثر تفاصيله، لكن الله يعلم ما أدينا فيه وما ضيعنا. اختر حقًا قصرت فيه، وابدأ بإصلاحه، ثم انظر كيف تعينك طريقة التعليم أو ترتيب العمل على حفظه في المرة التالية.

الفصل العاشر: الصحابة وتقسيم المسؤوليات

حين لا يكون العدل أن يفعل الجميع الشيء نفسه

قد يختلط علينا معنى الانضباط حين نراه في صورة فرد واحد يحمل كل شيء بنفسه. يبدو هذا المشهد قويًا: صاحب العمل الذي لا يفوض، والأب الذي لا يترك مهمة لغيره، والطالب الذي يريد أن يحضر كل مجلس ويقرأ كل كتاب، والمسؤول الذي يراجع كل تفصيل مهما صغر. لكن كثرة ما يمسكه الإنسان بيده لا تثبت وحدها جودة قيامه بالمسؤولية. قد تكون علامة على غياب الثقة، أو سوء توزيع العمل، أو عجز النظام عن الاستمرار إذا غاب شخص واحد.

وفي حياة الصحابة صور تساعد على تصحيح هذا الفهم، بشرط أن نقرأها كما جاءت لا أن نحولها إلى رسوم تنظيمية حديثة ثم ننسب تفاصيلها إلى عصرهم. نجد تناوبًا يحفظ العلم مع بقاء العمل، ونجد اختيارًا للمهمة بحسب القدرة، ونجد مسؤولًا يُبعث إلى عمل معلوم وتوضح له حدود تتعلق بحقوق الناس، ونجد تذكيرًا بأن للإنسان ورثه وأهله ونفسه حقوقًا لا يصح أن يلتهم بعضها بعضًا.

هذه الأخبار لا تعطينا «هيكلًا إداريًا نبويًا» جاهزًا لكل مؤسسة، ولا تقرر أن كل عمل جماعي يجب أن ينسخ صورة واحدة. لكنها تعلمنا سؤالًا أسبق من المخطط: من أقدر على هذه المهمة؟ وما الذي يحتاج إليه كي يؤديها؟ ومن يحمل بقية الحقوق أثناء ذلك؟ وكيف تنتقل المعلومة والمسؤولية من شخص إلى آخر من غير أن تضيع؟

عمر وجاره: التناوب الذي لم يجعل الغياب انقطاعًا

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ، وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، يَنْزِلُ يَوْمًا وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ، وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، فَنَزَلَ صَاحِبِي الْأَنْصَارِيُّ يَوْمَ نَوْبَتِهِ، فَضَرَبَ بَابِي ضَرْبًا شَدِيدًا، فَقَالَ: أَتَمَّ هُوَ؟ فَفَزَعْتُ فَخَرَجْتُ إِلَيْهِ، فَقَالَ: قَدْ حَدَثَ أَمْرٌ عَظِيمٌ. قَالَ: فَدَخَلْتُ عَلَى حَفْصَةَ فَإِذَا هِيَ تَبْكِي، فَقُلْتُ: طَلَّقَنَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ قَالَتْ: لَا أَدْرِي. ثُمَّ دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْتُ وَأَنَا قَائِمٌ: أَطْلَقْتَ نِسَاءَكَ؟ قَالَ: لَا. فَقُلْتُ: اللَّهُ أَكْبَرُ».⁹¹

91 من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم،

باب التناوب في العلم، رقم الحديث ٨٩

قيمة الخبر هنا ليست في استنساخ نظام «يوم بيوم»؛ فهذا جزء من واقع الرجلين، لا جدولاً لازماً لطلب العلم. القيمة في أن التناوب أتاح لكل واحد منهما أن يتلقى من صاحبه ما فاته، فبقي نقل العلم متصلًا مع تعاقب الحضور. وفي هذا معنى نافع لمن يغيب عن مجلس علم: أن يطلب ما فاته من نقل موثوق، ولمن حضر: أن ينفع صاحبه بما سمع.

وفي التناوب معنى آخر: وجود مهمة لا يؤديها شخص في لحظة لا يعني سقوط مسؤوليته عنها. أحدهما يحضر، والآخر يعتمد عليه في نقل ما حصل، ثم تنعكس الأدوار. النجاح هنا يحتاج إلى أمانة النقل، وإلى أن يعرف كل واحد متى دوره، وإلى أن تبقى المهمة محفوظة أثناء غيابه.

هذا يختلف عن تقسيم يبدد المسؤولية. في بعض الأعمال الحديثة يقول كل واحد: ظننت أن الآخر سيفعل. لا يوجد صاحب واضح للمهمة، ولا وقت لتسليمها، ولا طريقة لانتقال المعلومات. ظاهر المشهد تعاون، وحقيقته أن الفراغ توزع بين الجميع. أما التناوب النافع فيحتاج إلى جواب واضح: من يقوم الآن؟ وماذا يسلم لمن يأتي بعده؟ وما الذي لا يجوز أن يبقى في ذاكرته وحده؟

ولأن خبر عمر متعلق بطلب العلم، فله قيد مهم: ما ينقله صاحب لا يحول كل رواية عابرة إلى علم محقق. الخبر نفسه يصف نقل ما وقع في ذلك اليوم بين رجلين يعرف أحدهما الآخر. أما مسائل الدين التي تحتاج إلى ضبط النص أو الحكم، فلها طرق التثبت المعروفة. نستفيد من صورة التناوب، ولا نستخرج منها ترخيصاً في الاكتفاء بأي نقل غير موثق.

القوة والأمانة: صفتان لا تختصران في كلمة واحدة

قالت إحدى المرأتين في قصة موسى عليه السلام: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾. [القصص: ٢٦].⁹²

الآية في سياق قصة موسى عليه السلام قبل بعثته، وليست خبراً عن الصحابة. لكنها تضع أصلاً نافعاً قبل الانتقال إلى أمثلتهم: العمل يحتاج إلى قدرة تناسبه وأمانة تحفظ حقه. وليس كل من كان أميناً قادراً على كل مهمة، كما أن القدرة الفنية وحدها لا تكفي إذا ضاعت الأمانة.

92 القرآن الكريم، سورة القصص، الآية ٢٦، القوة والأمانة

ومن الخطأ أن نحصر «القوة» في القوة البدنية في كل عمل. في الرعي أو الحمل قد يظهر جانب بدني، وفي التعليم تكون من القوة معرفة المادة والقدرة على بيانها، وفي إدارة المال تكون منها القدرة على الضبط والفهم والحفظ، وفي مهمة تقنية تكون منها مهارة لا يملكها غير المتخصص. هذه توسعة تطبيقية بحسب طبيعة الأعمال، لا تفسير منقول للآية في كل صورة معاصرة.

وكذلك الأمانة ليست مجرد حسن السمعة. قد يكون الإنسان صادقاً في كلامه لكنه لا يحفظ السر الذي استؤمن عليه، أو يقبل عملاً يعلم أنه لن يستطيع الوفاء بموعده، أو يخفي خطأ لأنه يخشى أن يبدو أقل كفاءة. الأمانة في المهمة تشمل أن يعرف حدود قدرته، وأن يقول عند الحاجة: لا أحسن هذا، أو أحتاج إلى من يراجعني.

لهذا لا يبدأ حسن التوزيع بسؤال: من أفضل الناس بإطلاق؟ بل: من أصلح لهذه المهمة مع حفظ الحق؟ قد يكون شخص أقدر على التعليم، وآخر أدق في الحساب، وثالث أحسن في التواصل مع الناس. توزيع الأدوار لا ينتقص من أحدهم، ما دام الاختيار قائماً على حاجة العمل لا على تحقير الأشخاص.

أبو ذر: صلاح الإنسان لا يجعله مناسباً لكل منصب

عن أبي ذر رضي الله عنه قال: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: يَا أَبَا ذَرٍّ، إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلَّا مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا وَآدَى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا».⁹³

هذا النص مهم لأن أبا ذر من أصحاب النبي ﷺ، ومحبته وفضله لا يجعلان كل مسؤولية مناسبة له. فلم تكن الملاحظة إهانة له، ولا حكماً بأنه ضعيف في كل شأن؛ الحديث متعلق بالإمارة، وهي مسؤولية لها مطالب مخصوصة.

ومن هنا نحتاج إلى تفريق يغيب في بعض البيئات: التقييم الوظيفي ليس حكماً على قيمة الإنسان. قد يكون الرجل صالحاً كريماً ولا يناسب منصباً إدارياً، وقد تكون المرأة أمانة نافعة ولا تلائمها مهمة تتطلب خبرة لم تتعلمها بعد. قول ذلك يعدل ليس احتقاراً، كما أن مجاملة الشخص بإسناد ما لا يحسنه إليه قد تضر به وبمن تتعلق حقوقهم بعمله.

93 من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث ١٨٢٥؛ من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث ١٨٢٦

ولا يصح أن نحول الحديث إلى أداة قاسية نصف بها كل متعثر بأنه «ضعيف». النبي ﷺ كان يعرف أبا ذر، والنص جاء في مقام بعينه. نحن لا نملك هذا العلم بأشخاص الناس من موقف واحد. لذلك يكون التطبيق المعاصر أدق حين يصف القدرة المطلوبة والمشاهدة: هذه المهمة تحتاج إلى كذا، وقد ظهر أن صاحبها لم يتعلم هذا الجانب بعد، أو أن حجم المسؤولية يفوق ما يستطيع حمله الآن. وصف المهمة والمهارة أعدل من إطلاق صفة عامة على الشخص.

ويفيد الحديث أيضًا المسؤول نفسه. من الأمانة ألا يطلب المرء موقعًا لأنه يمنحه صورة أو نفوذًا، ثم يتعامل مع تبعاته كأنها تفاصيل ثانوية. المنصب لا يضيف لقبًا فقط؛ يضيف حقوقًا للناس، وقرارات قد تمس أموالهم وأوقاتهم وكرامتهم. وكلما اتسعت دائرة الأثر صار تقدير القدرة أكثر أهمية، لا أقل.

معاذ إلى اليمن: التفويض ليس إلقاء المهمة ثم الانصراف

عن ابن عباس رضي الله عنهما: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ مُعَاذًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى الْيَمَنِ فَقَالَ: ادْعُهُمْ إِلَى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّي رَسُولُ اللَّهِ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوا لِذَلِكَ فَأَعْلِمُهُمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ

أَطَاعُوا لِدَٰلِكَ فَأَغْنَاهُمْ أَنَّ اللَّهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً فِي
أَمْوَالِهِمْ، تُوْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَىٰ فُقَرَائِهِمْ».⁹⁴

لا نبحث هنا تفاصيل أحكام الزكاة؛ فلها فصلها السابق وفقهها المعروف. الذي يهمنا في باب توزيع المسؤوليات أن البعث لم يكن جملة غامضة من نوع: «اذهب وافعل ما تراه مناسباً». هناك مهمة، وأولويات، وحدود تحفظ حقوق من سيتعامل معهم العامل.

وهذا يفرق بين التفويض والتخلص من المهمة. المدير الذي يقول لموظف جديد: تول الأمر كله، ثم يختفي حتى يقع الخطأ، لم يصنع بالضرورة استقلالاً؛ ربما نقل إليه غموضاً أكبر من قدرته. والمربي الذي يطالب ابنه بمهمة لم يشرح حدودها ثم يغضب من النتيجة لا يكون قد دربه على المسؤولية، بل اختبره في أمر لم يتعلمه.

التفويض الجيد، في تطبيقنا المعاصر، يحتاج إلى أربعة أمور على الأقل: أن يعرف الشخص النتيجة المطلوبة، والحدود التي لا يتجاوزها، والموارد أو المعلومات التي يحتاج إليها، والموضع الذي يرجع فيه إذا ظهرت مسألة فوق صلاحياته أو

94 من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب

الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث ١٣٩٥

علمه. هذه صياغة تنظيمية من عندنا، وليست ألفاظاً من حديث معاذ. فائدتها أن تحفظ معنى المسؤولية من التحول إلى غموض.

وفي الخبر جانب يتعلق بمن يتأثر بالمهمة. الزكاة ليست مجرد رقم يجمعه العامل، بل حق له أصحاب، وللمالك أيضاً حرمة ألا يظلم في الأخذ. حين نوزع المسؤوليات لا يكفي أن نسأل هل أتم الموظف الإجراء؛ نسأل أيضاً: هل حفظ الإجراء حق من وقع عليه؟ قد تكون سرعة الإنجاز عالية بينما ارتفع معها الخطأ أو الظلم، فلا نسمي ذلك انضباطاً مكتملاً.

الحقوق لا تختفي حين تتوزع الأدوار

عن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: «أَخَى النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَرَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أُمُّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ. قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ. فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ. فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ

حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيُّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلَمَانٌ».⁹⁵

مر معنا هذا الحديث في الحديث عن المداومة ومجاهدة النفس، وهنا نقرأه من زاوية مختلفة: الإنسان نفسه يحمل أكثر من دور. قد يكون مسؤولاً في عمله، ووالداً، وزوجاً، وطالب علم، وله بدن يحتاج إلى حقه، وعليه عبادات. توزيع المسؤوليات ليس بين أفراد الفريق فقط؛ أحياناً يكون داخل حياة الشخص الواحد.

الخطر أن يمنح الإنسان الدور الذي يراه أكثر مكانة حق ابتلاع البقية. قد ينجح مدير في مشروعه لأنه جعل أسرته تمتص كل فوضى مواعيده. وقد يكثر متعلم من الدروس لأنه ترك غيره يقوم دائماً بما عليه في البيت. وقد يرفض شخص مساعدة متاحة لأنه يرى الاعتماد على غيره نقصاً في الجدية. لكن حفظ الحقوق قد يقتضي أن يقبل العون، وأن يفوض، وأن يعلن حدود وقته قبل أن يعد بما لا يستطيع.

95 من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء، إذا كان أوفق له، رقم الحديث ١٩٦٨

ولا تعني الموازنة أن لكل حق عددًا متساويًا من الساعات. الحقوق تختلف في أحكامها وأوقاتها وحاجاتها. المطلوب ألا يصبح نجاح جانب حجة دائمة لإسقاط جانب آخر. حين تتزاحم الحقوق يحتاج الإنسان إلى علم بالحكم، وإلى تقدير واقعي للقدرة، وإلى مصارحة من يتعلق بهم أثر قراره.

كيف نوزع العمل من غير أن نصنع طبقات من البشر؟

قد تتحول لغة «الأقدر» إلى باب للغرور إذا لم تضبط. ينجح شخص في مهمة فيتصور أنه أصلح لكل شيء، أو يملك مسؤول سلطة الاختيار فيجعل المهام الأفضل لأقرب الناس إليه ثم يسمي ذلك توزيعًا بحسب الكفاءة. النصوص السابقة لا تعطينا غطاء لهذا؛ بل تربط القدرة بالأمانة وبالحقوق.

ومن الضوابط العملية المقترحة أن نفصل بين ثلاثة أشياء: قيمة الإنسان، وكفاءته الحالية، وسلطة المهمة. قيمة الإنسان لا تستخرج من درجته الوظيفية. الكفاءة يمكن أن تنمو بالتعلم، وقد تكون قوية في مجال وضعيفة في آخر. والسلطة ليست ملكًا شخصيًا، بل أداة مرتبطة بعمل ينبغي أن يؤدي بحق.

إذا حفظنا هذا الفصل أمكن أن نقول لمتعلم: تحتاج إلى مزيد من التدريب قبل أن تنفرد بهذه المهمة، دون أن نقول له: أنت لا تصلح. ويمكن أن ننقل مسؤولاً من دور إلى دور أنسب، دون تحويل النقل إلى فضيحة. ويمكن أن نعطي المبتدئ جزءاً حقيقياً من العمل، مع مراجعة تناسب مرحلته، بدل أن يبقى يتفرج حتى يفاجأ يوماً بمسؤولية كاملة.

وهنا تظهر فائدة التناوب مرة أخرى. التناوب لا يعني أن الجميع متساوون في كل مهارة، لكنه يخفف اعتماد النظام على شخص واحد، ويتيح انتقال المعرفة. قد يؤدي الخبير المهمة الأصعب ويبقى معه شخص يتعلم، ثم يتوسع دور المتعلم بقدر ما يثبت إتقانه. هذا تطبيق معاصر، لا نسبة تاريخية إلى خبر عمر وجاره.

حالة افتراضية: فريق صغير ومهمة واحدة لا يحملها فرد وحده

لنفترض فريقاً من أربعة أشخاص يعد مادة تعليمية. الأول واسع المعرفة بالمحتوى لكنه يتأخر في تحرير النصوص. الثاني محرر دقيق لكنه لا يملك الخبرة العلمية نفسها. الثالث منظم جيد للملفات والمواعيد. الرابع يتقن الإخراج التقني لكنه جديد على الموضوع.

لو جعلنا «الأفضل» لقبًا عامًا، فقد نسند كل شيء إلى الأول لأنه أعلم بالمادة، فيصبح عنق زجاجة: يكتب ويراجع ويسمي الملفات ويتابع المواعيد ويعتمد الإخراج. ثم إذا تأخر اهتمناه بسوء الانضباط، مع أن النظام نفسه صمم على نحو يطلب من شخص واحد أربع قدرات مختلفة.

التوزيع الأوضح أن يبقى صاحب العلم مسؤولاً عن صحة المحتوى وما يحتاج إلى حكمه، ويتولى المحرر الصياغة بعد فهم المعنى، ويضبط المنظم حركة الملفات والمواعيد، ويتولى التقني الإخراج ضمن مواصفات معلومة. لكن هذه القسمة لا تنجح إذا صارت جزراً منفصلة؛ يحتاج كل انتقال إلى تسليم واضح: ما النسخة التي اعتمدت؟ وما الذي بقي معلقاً؟ ومن يملك قرار التغيير في هذه المرحلة؟

ثم تأتي الأمانة. المحرر لا يغير معنى علمياً ليكمل العبارة دون الرجوع، والعالم لا يترك ملاحظته في ذهنه ثم يلوم المصمم لأنه لم يعرفها، والمنظم لا يجعل الموعد أهم من صحة المادة، والتقني لا يخفي خللاً في الإخراج حتى لا يتأخر التسليم. كل شخص يحمل حقاً يناسب موضعه.

ولو غاب أحدهم يوماً، يظهر سؤال الاستمرار. ما الذي يجب أن يكون موثقاً كي لا تتوقف المهمة كلياً؟ هنا يمكن أن

نستفيد من معنى تناوب عمر وجاره: لا أن ننسخ الأيام، بل أن نجعل المعرفة اللازمة قابلة للانتقال، وأن يعرف البديل أين وصل العمل وما الذي ثبت وما الذي لم يثبت.

هذه الحالة تعليمية مفترضة، وليست تجربة إدارية أجريت وقيست نتائجها. فائدتها اختبار المبادئ في صورة معاصرة: ملائمة القدرة، وضوح الدور، حفظ الحقوق، وتسليم المعرفة.

علامات أن التقسيم نفسه يحتاج إلى إصلاح

قد يكون الخلل في الأشخاص، وقد يكون في القسمة. إذا تكرر أن تتجمع كل القرارات عند فرد واحد، فالسؤال ليس فقط لماذا يتأخر؛ بل لماذا لم ينقل شيء من المعرفة أو السلطة المناسبة. وإذا كان شخص يتلقى اللوم عن نتيجة لا يملك أدواتها ولا صلاحية تغيير أسبابها، فالمشكلة في تعريف المسؤولية. وإذا كان اثنان يؤديان العمل نفسه ولا يعرف أيهما صاحب القرار، فالتعاون يحتاج إلى حد أوضح.

ومن العلامات أيضًا أن يبقى صاحب المهارة محبوسًا في كل تفصيل لأنه «الأفضل». قد يكون من واجبه أن يعلم غيره ما يمكن تعلمه، حتى يبقى هو متفرغًا لما لا يقوم به غيره. ليس المقصود أن يسلم عملاً دقيقًا لمن لم يتأهل، بل أن يفرق بين

ما يحتاج خبرته حقًا وما اعتاد أن يحتكره لأنه أسرع له على المدى القريب.

وعلى الجانب الآخر، لا يكون توزيع المسؤوليات حجة لعدم التعلم. قول الموظف: هذه ليست مهمتي، قد يكون صحيحًا إذا طلب منه تجاوز اختصاص أو صلاحية، وقد يكون طريقة للهروب من معرفة لازمة لأداء دوره. الحدود الجيدة تمنع الفوضى، لكنها لا تحول الفريق إلى أشخاص لا يفهم أحد منهم أثر عمله في الآخر.

قبل أن تكلف أحدًا: خمسة أسئلة

يمكن أن نختم هذا الفصل بأداة مراجعة بسيطة لا تدعي أنها مقياس للكفاءة.

أولًا: ما الحق أو النتيجة التي نحاول حفظها؟ إذا لم نعرفها، صار توزيع المهام حركة بلا مقصد.

ثانيًا: ما القدرة المطلوبة فعليًا؟ معرفة، أو مهارة، أو وقت، أو قدرة على التواصل، أو صلاحية نظامية، أو اجتماع بعض هذه العناصر.

ثالثًا: ما الذي يعرفه الشخص الآن، وما الذي يحتاج إلى تعلمه أو إلى من يعينه؟ لا نخلط بين نقص قابل للتعلم وعدم ملائمة مستمرة.

رابعًا: ما حدود المهمة؟ ما الذي يستطيع أن يقرره، ومتى يجب أن يرجع، ومن يتأثر بقراره؟

خامسًا: كيف تنتقل المعلومات إذا غاب؟ ليست الغاية مراقبة الإنسان في كل لحظة، بل ألا تصبح حقوق الناس رهينة بذاكرة فرد واحد.

هذه الأسئلة مستفادة من المعاني السابقة ومصاغة للتطبيق؛ ليست ألفاظًا مأثورة عن الصحابة. وإذا ظهر من الإجابة أن المهمة أكبر من الشخص، فتصحح التكليف خير من انتظار الخطأ ثم معاقبته على أمر لم تنتهياً له أسبابه.

ليس الانضباط بطولة فردية

تعلمنا هذه المشاهد أن الإنسان الجاد لا يثبت جديته بأن يحمل كل شيء. عمر رضي الله عنه قبل أن ينقل إليه جاره ما فاته، ثم أدى الدور نفسه لجاره. وأبو ذر رضي الله عنه لم تنتقص صحبته حين نصح بألا يحمل إمارة لا تلائمه. ومعاذ رضي الله عنه بُعث إلى مهمة، لكن المهمة جاءت معها حدود تحفظ حق الناس. وفي حياة المسلم كلها تبقى الحقوق متعددة، فلا يجوز أن يتحول الوفاء بواحد منها إلى طريق دائم لضیاع البقية.

حين نحسن توزيع المسؤوليات يصبح الانضباط أقل ضجيجًا وأكثر موثوقية. يعرف كل إنسان ما عليه، ويعرف ما لا يحسنه بعد، ويطلب العون حيث يحتاجه، ويسلم العمل لمن بعده بوضوح، ولا يجعل المنصب مقياس قيمته. وحين يقع خلل نسأل عن الشخص وعن النظام معًا: هل قصر فيما يقدر عليه، أم كلفناه بما لم نهئ له؟ وهل ضاعت المعلومة لأن حاملها أهملها، أم لأننا بنينا عملاً لا يعرف إلا فرد واحد كيف يستمر؟

ليست الغاية أن يصبح كل واحد قادرًا على كل شيء؛ الغاية أن تصل الحقوق إلى أهلها، وأن توضع القوة حيث تنفع، والأمانة حيث تحفظ، وأن تتعاون القدرات المختلفة على عمل لا يضيع إذا غاب صاحبه ساعة.

الفصل الحادي عشر: الصحابة بين العزيمة والاقتصاد

ليست القدوة صورة واحدة من التعب

حين نقرأ أخبار الصحابة رضي الله عنهم، قد تستوقفنا الأعمال الشديدة قبل الأعمال الهادئة. يسهل أن نتذكر قياماً طويلاً أو بذلاً عظيماً، ويصعب أن نرى مقدار الانضباط في إنسان حفظ واجبه يوماً بعد يوم، وأدى أمانته من غير أن يلفت الأنظار. وقد تنشأ من الانتقاء صورة غير متوازنة: كأن الطريق إلى الله لا يصدق إلا إذا استنفد صاحبه قوته، أو كأن اختلاف الناس في مقدار التطوع اختلاف في قيمة إيمانهم نستطيع الحكم عليه من الخارج.

لكن الخبر لا يقرأ وحده، والفضل لا يستخرج من المشقة مجردة. نحن نحتاج أن نقرأ العزيمة مع العلم بما شرع، وأن نقرأ الإكثار مع الحقوق، وأن نفهم أن النفس قد تحمل عملاً في مرحلة ثم تحتاج إلى طريقة أخرى في مرحلة لاحقة. المقصود ليس تبريد الهمة؛ بل أن تبقى الهمة في الطريق الذي جاءت من أجله، فلا تتحول إلى منافسة على صورة لا تلائم صاحبها ولا تحفظ من حوله.

والاقتصاد هنا لا يعني الكسل أو اختيار الأسهل في كل حال. نعني به القصد الذي يضع العمل في موضعه، ويمنع الزيادة التي تفسده أو تزاحم ما هو أولى منه. قد يكون المطلوب من إنسان أن يزيد جهده، ومن آخر أن ينظم ما بذله، ومن ثالث أن يكف عن تحميل نفسه ما لم يُطلب منها. ولا يحسن المربي الاختيار بينهم حتى يعرف الوقائع، بدل أن يحمل إلى كل واحد وصفة واحدة اسمها: افعل أكثر.

ثلاث عزائم صححها الهدي

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «جَاءَ ثَلَاثَةٌ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ، فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَانَتْهُمْ تَقَالُوهَا، فَقَالُوا: وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ؟ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَا أَنَا فَإِنِّي أَصْلِي اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلَا أَفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلَا أَتَزَوَّجُ أَبَدًا. فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: أَنْتُمْ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا؟ أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتَقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأَفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَن سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي.»⁹⁶

96 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم الحديث ٥٠٦٣

المشكلة في هذه الواقعة لم تكن قلة الرغبة في الخير؛ كانت في المعيار الذي قُدِّر به الخير. ظن أصحاب العزائم أن مزيداً من الترك والتعب يقربهم، فجاء التعليم ليعيدهم إلى هدي يجمع العبادة والحياة. وهذا يحفظنا من خطأ تربوي كبير: أن نمدح كل خطة شديدة لأن صاحبها متحمس، ثم نؤجل النظر في مشروعيتها وآثارها إلى ما بعد انهيارها.

التصحيح لم يكن زيادةً على هذه العزائم، بل ردّاً إلى السنة. ومن هنا يصبح الاتباع ضابط العزيمة، لا نتيجة ثانوية نبحت عنها بعد أن نختار صورة ترضينا.

وقد يظهر المعنى في خطة معاصرة لا تشبه الواقعة في حكمها. موظف يريد تعويض تقصيره فيتعهد بالعمل كل ليلة، وطالب يحذف من يومه كل راحة، ومربٍّ يجعل وقت الأسرة سلسلة برامج لا تنتهي. هذه أمثلة نفترضها للمقارنة في طريقة التفكير، لا قياساً فقهيّاً يسوي بينها وبين الواقعة. السؤال المشترك: هل نراجع حق العمل وحده، أم نراجع أيضاً الحقوق التي ستدفع ثمن هذه الزيادة؟

حنظلة والخوف من تغير الحال

عن حنظلة الأسيدي رضي الله عنه، وكان من كُتّاب رسول الله ﷺ، قال: «لَقِينِي أَبُو بَكْرٍ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ؟ قَالَ:

قُلْتُ: نَافِقَ حَنْظَلَةَ. قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ، مَا تَقُولُ؟ قَالَ: قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا. قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَاللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قُلْتُ: نَافِقَ حَنْظَلَةَ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَمَا ذَاكَ؟ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأَى عَيْنٍ، فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الْأَزْوَاجَ وَالْأَوْلَادَ وَالصَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحْتُكُمْ الْمَلَائِكَةَ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ، وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةَ سَاعَةً وَسَاعَةً. ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.⁹⁷

ليس الحديث إذنًا يجعل للمعصية ساعةً كما يجعل للطاعة ساعة. موضوعه تغيير حضور القلب مع الانتقال من مجلس التذكير إلى الأهل والمال وشؤون الحياة، مع بقاء أصل

97 من حديث حنظلة الأسدي رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، رقم الحديث ٢٧٥٠، الرواية أ

الإيمان والعمل. وهذا التفصيل مهم؛ لأن العبارة القصيرة إذا انفصلت عن قصتها أمكن استعمالها في معنى لا تحمله.

نتعلم من موقف حنظلة صدق الملاحظة وطلب البيان. لم يحوّل شعوره إلى حكم نهائي على نفسه، ولم يخف السؤال لئلا يبدو أقل من غيره، بل رجع إلى من يعلمه. وقد يمر القارئ بشيء من ذلك: يسمع موعظة فيرق قلبه، ثم يدخل في رعاية أطفاله أو متابعة عمله فلا يجد الدرجة نفسها من التأثير. ليس طريق التصحيح أن يتهم كل حال عادية بالنفاق، ولا أن يتخذ تغيير الشعور حجة لترك الصلاة والحقوق؛ بل أن يعرف ما يلزمه في كل موضع.

إن انتظار الشعور المرتفع دائماً قد يقطع عن عمل صالح هادئ. يخدم الإنسان والده دون انفعال ظاهر، ويضبط كلمته في خلاف، ويراجع حساباً يتعلق بأمانة. لا نملك الحكم على باطنه، لكننا نعلم أن هذه الأعمال لا تفقد معناها لمجرد أنها وقعت في يوم عادي. المداومة أوسع من دوام الاندفاع العاطفي.

فرق بين أصل الالتزام ومقدار التطوع

عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ، أَلَمْ أُخْبَرْ أَنَّكَ تَصُومُ النَّهَارَ وَتَقُومُ

اللَّيْلَ؟» فقلت: بلى يا رسول الله. قال: «فَلَا تَفْعَلْ، صُمْ وَأَفْطِرْ، وَقُمْ وَنَمْ، فَإِنَّ لِحَسَدِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِعَيْنِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِرِزْقِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَإِنَّ لِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ». فشددت فشدد عليّ، قلت: يا رسول الله، إني أجد قوة. قال: «فَصُمْ صِيَامَ نَبِيِّ اللَّهِ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَا تَزِدْ عَلَيْهِ». قلت: وما كان صيام نبي الله داود عليه السلام؟ قال: «نِصْفُ الدَّهْرِ». فكان عبد الله يقول بعدما كبر: يا ليتني قبلت رخصة النبي ﷺ.⁹⁸

والزاوية التي نحتاجها هنا هي أن القدرة لا تقدّر في لحظة واحدة: ما يستطيع المرء حمله في شباب قليل الالتزامات قد يختلف عما يستطيع حمله في كبره أو مع اتساع مسؤوليته.

لكن هذا لا يبرر تحويل كل واجب إلى مقدار شخصي يختاره الإنسان لنفسه. أصل الصلاة المفروضة ليس مشروعًا تجريبيًا يزيده وينقصه بحسب الحماسة، والحقوق المستحقة لا تسقط لأن صاحبها أراد برنامجًا أريح. إنما الكلام في مقدار

98 من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري،

كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم الحديث ١٩٧٥

النوافل والوسائل والأعمال الاختيارية، مع تعلم الرخص الشرعية حيث توجد أسبابها.

لهذا نسأل عند تعديل خطة: ما الذي نعدله تحديداً؟ وقتاً اختيارياً للقراءة، أم وعداً تعلق به غيرنا؟ عدداً من النوافل، أم أصل حق واجب؟ طريقة أداء، أم أصل المسؤولية؟ الدقة في تسمية الشيء تمنع أن تصبح المرونة كلمة تخفي التفريط، كما تمنع أن يصبح الثبات كلمة تخفي تحميل النفس ما لا يلزمها.

وعن أبي جحيفة رضي الله عنه قال: «أَخَى النَّبِيُّ ﷺ يَبْنَ سَلْمَانَ وَأَبِي الدَّرْدَاءِ، فَزَارَ سَلْمَانُ أَبَا الدَّرْدَاءِ، فَرَأَى أَنَّ الدَّرْدَاءِ مُتَبَدِّلَةً، فَقَالَ لَهَا: مَا شَأْنُكَ؟ قَالَتْ: أَخُوكَ أَبُو الدَّرْدَاءِ لَيْسَ لَهُ حَاجَةٌ فِي الدُّنْيَا. فَجَاءَ أَبُو الدَّرْدَاءِ، فَصَنَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَ: كُلْ. قَالَ: فَإِنِّي صَائِمٌ. قَالَ: مَا أَنَا بِأَكِلٍ حَتَّى تَأْكُلَ. قَالَ: فَأَكَلَ. فَلَمَّا كَانَ اللَّيْلُ ذَهَبَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُومُ، قَالَ: نَمْ. فَنَامَ، ثُمَّ ذَهَبَ يَقُومُ، فَقَالَ: نَمْ. فَلَمَّا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ قَالَ سَلْمَانُ: قُمْ الْآنَ. فَصَلَّيَا، فَقَالَ لَهُ سَلْمَانُ: إِنَّ لِرَبِّكَ عَلَيْكَ حَقًّا، وَلِنَفْسِكَ عَلَيْكَ

حَقًّا، وَلِأَهْلِكَ عَلَيْكَ حَقًّا، فَأَعْطِ كُلَّ ذِي حَقٍّ حَقَّهُ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «صَدَقَ سَلَمَانٌ».⁹⁹

ويجمع معنى الخبر ما تقدم: كثرة العمل في جانب لا تمنح صاحبه رخصة عامة في إهمال سائر الجوانب. والحق الذي يؤديه الإنسان لغيره ليس عائقًا خارج طريق تزكية النفس؛ قد يكون من صميم الطريق نفسه.

المقارنة التي تعين والمقارنة التي تؤذي

يمكن أن تحركنا سيرة مجتهد إلى الخير: نتعلم من صدقه، ونرى أن النفس تستطيع أن تتجاوز شيئًا من عجزها المتوهم. لكن المقارنة تفقد فائدتها عندما نحذف اختلاف الظروف. نقرأ عن عالم تفرغ للطلب، ثم نحاكم إلى يومه من يجمع بين الكسب والرعاية والتعلم. ونرى عملاً ظهر للناس، ولا نرى المساندة التي مكنت صاحبه منه ولا ما تركه من أعمال أخرى. القدوة النافعة تسأل: ما المعنى الذي أستطيع أن أتعلمه؟ قد يكون حسن البدء، أو الصبر على التصحيح، أو حفظ الوقت من العبث، أو بذل المال في موضعه. أما نسخ المقدار بلا

99 من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء، إذا كان أوفق له، رقم الحديث ١٩٦٨

معرفة فربما أنشأ وعدًا لا يثبت. ليس من الإنصاف أن نطلب من القارئ تقليد كل خصلة في كل شخصية يقرأ عنها، حتى يجتمع عليه ما لم يجتمع في حياة شخص واحد.

ولا يلزم من هذا أن نرضى بكل تقدير منخفض لقدرتنا. من الناس من يحتاج فعليًا إلى تجربة جادة تكشف له أنه يستطيع أكثر. الفرق أن التجربة تكون في عمل مشروع، وبزيادة محددة، ومراجعة صادقة لنتيجتها، لا بعهد مبالغ فيه يجعل التراجع الآمن عارًا. إذا ظهر أن الزيادة نافعة ومستطاعة ثبتنا عليها، وإذا ظهرت كلفتها على واجب آخر أصلحناها.

مثال افتراضي: التزامان لا يقرآن بالعدد نفسه

لنفترض قارئين اختارا برنامج تعلم واحدًا. الأول له وقت مستقر ومكان هادئ، والثاني تتقطع أمسياته برعاية قريب يحتاج إليه. أتم الأول أربع جلسات طويلة، وأتم الثاني ثلاث جلسات أقصر. لا يمكن للعدد وحده أن يبين أيهما أوفى بما عليه؛ فقد يكون الأول أهمل في ساعات متاحة، وقد يكون الثاني استثمر الممكن مع حفظ حق الرعاية. وقد يكون العكس. نحتاج إلى الوقائع لا إلى الثناء المسبق على أحدهما.

ينظر كل واحد في أمرين: صدق بذله داخل ما يملكه، وصحة الخطة بالنسبة إلى حياته. الأول قد يحتاج أن يثبت البداية

ويقلل التشتت؛ والثاني قد يحتاج إلى تقسيم المادة وترتيب مساندة متاحة. كلاهما مسؤول، لكن المسؤولية لا تعني تطابق المقدار. والهدف أن يتحسن العمل بالفعل، لا أن تتشابه صورتا السجلين.

وفي المراجعة لا نسأل عن الجلسات فقط: ماذا فهم؟ وما الذي بقي؟ وهل نفع التعلم في موضعه؟ وهل وقع تقصير يحتاج إلى إصلاح؟ هكذا تعمل القدوة داخل الحياة، وتبقى العزيمة قوةً على أداء الحق، لا ضغطاً لإنتاج صورة واحدة من البشر.

ما يبقى من الصلابة

تعطي هذه الأخبار القارئ شجاعةً مزدوجة: شجاعة أن يحمل نفسه على ما ينفعها، وشجاعة أن يصحح تصورًا شديدًا كان يظنه أقرب إلى الخير. قد يحتاج إلى أن يبدأ مع الثقل، وقد يحتاج إلى أن يخفف ما زاد حتى يستقيم ما وجب، وقد يحتاج إلى سؤال يزيل خوفًا مبنيًا على فهم غير صحيح.

والسؤال الذي يصحبنا ليس: كيف أبدو أكثر احتمالًا من الناس؟ بل: كيف أكون أوفى بما علمني الله، وأصدق فيما أطيق، وأحسن حق من يعيش معي؟ في هذه الوجهة يجتمع الجد والرفق، وتبقى العزيمة قابلة للمداومة، ولا يصير الاقتصاد عذرًا لترك الطريق.

الفصل الثاني عشر: التابعون وصيانة العلم

ما يدخل إلى العقل يصير جزءًا من القرار

ليست كل فوضى ظاهرة في المواعيد والأشياء. قد يكون المرء مرتب المكتب، حاضراً في مواعيد، ثم يبني أحكامه على خبر لم يعرف أصله، أو ينقل نصيحة لا يميز بين دليها وبين شهرتها. هنا يختل الانضباط في موضع يسبق العمل: المدخل الذي أخذ منه الإنسان معرفته. وما يصححه من إجراءات بعد ذلك قد يبقى محكوماً بمعلومة غير صحيحة.

وحين ننظر في عناية التابعين بالرواية، نجد باباً من التربية لا يقوم على تكثير المحفوظ وحده. إنه تربية على السؤال: عمّن أخذت؟ وماذا سمعت بالضبط؟ وهل يصلح هذا الناقل لهذا النوع من العلم؟ لا ننقل نظام الإسناد إلى كل خبر معاصر بصورته الاصطلاحية، لكننا نرى فيه أن المعرفة أمانة لها شروط، وأن حسن المقصد لا يعوض ضعف الطريق الذي وصلت منه.

وتحفظ مقدمة صحيح مسلم ثلاثة آثار تضيء هذا المعنى: قولان لابن سيرين، وقول لأبي الزناد.

ابن سيرين: السؤال عن صاحب العلم

قال محمد بن سيرين: «إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ، فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ».¹⁰⁰

ليست الجملة دعوة إلى أن يحكم المبتدئ على العلماء بهواه، ولا إذناً بأن يختار من يوافق رغبته ثم يسميه أوثق؛ إنها تضع مسؤولية الأخذ أمام مسؤولية القول. من أين جاءت الفكرة التي ساعد الله بها أو أنسبها إلى شرعه؟

وقال ابن سيرين: «لَمْ يَكُونُوا يَسْأَلُونَ عَنِ الْإِسْنَادِ، فَلَمَّا وَقَعَتِ الْفِتْنَةُ قَالُوا: سَمُّوا لَنَا رِجَالَكُمْ، فَيَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ السُّنَّةِ فَيُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ، وَيَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْبِدْعِ فَلَا يُؤْخَذُ حَدِيثُهُمْ».¹⁰¹

يجمع القول بين السؤال عن طريق النقل والنظر في حال من يحمل الدين. فلا تكفي جاذبية الخبر، ولا يعدل حسن العرض

100 محمد بن سيرين، مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأنه الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٢٦

101 محمد بن سيرين، مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأنه الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٢٧

عن معرفة من أين جاء القول الذي سيبنى عليه اعتقاد أو عمل.

المعنى الذي يحتاج إليه قارئنا أن الثقة ليست شعورًا يصنعه حسن العرض فقط. قد يعجبنا صوت المتحدث، أو تجذبنا القصة، أو تريحنا النتيجة؛ لكن الإعجاب لا يخبرنا هل صح النقل. ومن الانضباط أن يتحمل المرء قدرًا من التوقف قبل أن ينسب، خاصةً عندما يتعلق الأمر بحديث أو حكم أو اتهام لشخص.

ويختلف هذا التوقف عن الشك الدائم الذي يمنع التعلم. ليس المطلوب أن يصبح كل قارئ ناقد أسانيد، بل أن يعرف حد علمه، ويرجع إلى المصادر وأهل الاختصاص فيما يحتاج إليهم. من لا يحسن تقويم رواية لا ي اخترع لها درجة، ومن لا يعرف اختلاف العلماء لا يعلن الإجماع لأنه لم يسمع رأيًا آخر. السؤال المناسب قد يكون أصدق من جواب واسع لا نملك أدواته.

العدالة وحدها لا تمنح كل مهارة

وقال أبو الزناد: «أَدْرَكْتُ بِالْمَدِينَةِ مِائَةً، كُلُّهُمْ مَأْمُونٌ، مَا يُؤَخِّدُ عَنْهُمْ الْحَدِيثُ، يُقَالُ: لَيْسَ مِنْ أَهْلِهِ».¹⁰²

هذا نقل في باب مخصوص، يلفت إلى التمييز بين أمانة الشخص وبين أهليته الفنية لأداء الرواية. الصلاح فضيلة عظيمة، لكنه لا يجعل الذاكرة دقيقة في كل علم ولا يمنح صاحبه ما لم يتعلمه.

وهنا تتضح صلة الباب بالانضباط. قد يمنعنا احترام إنسان من سؤال لازم عن اختصاصه، فنحمله مسؤولية لا يحسنها ونظن أننا نكرمه. وقد نرد خطأه ردًا جارحًا كأن ضعفه في باب أبطل كل فضله. بين هذين الطرفين يمكن أن نحفظ احترامه ونعترف بحدود ما يؤخذ عنه في المسألة المحددة.

في الطب والهندسة والتعليم والمال صور مختلفة من هذا التمييز. نختار الشخص بحسب طبيعة المهمة، ونطلب الدليل المناسب لها، ولا نستخرج من نجاحه في مجال شهادة شاملة على كل ما يقوله. وهذه أمثلة تقريبية معاصرة، وليست نقلًا

102 أبو الزناد، مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٣٠

لأحكام علم الحديث إلى المهن بكل تفاصيلها. الجامع أن الثقة الأخلاقية والكفاءة في العمل أمران يحتاج كل منهما إلى اعتبار.

وحين يكون المتكلم هو نحن، يصبح السؤال أشد قربًا: هل أجيب لأنني أعلم، أم لأنني اعتدت أن يسألني الناس؟ وهل أبين أن هذا رأي أو خبرة محدودة، أم أترك كلامي يتسع في ذهن السامع حتى يظنه حقيقة عامة؟ حفظ المنزلة لا يكون بادعاء ما لا نعرف؛ قد يحفظها اعتراف واضح بالحد الذي بلغناه.

التثبت قبل أن تنتقل الكلمة

للخبر مراحل: يسمعه إنسان، ويفهمه، ويحفظه أو يكتبه، ثم ينقله، ثم يستعمله آخر في قرار. يمكن أن يقع الخلل في أي مرحلة. يسمع الناقل جزءًا ويحذف قيده، أو يفهم المثال حكمًا عامًا، أو يحفظ المعنى ثم يسوقه على أنه لفظ صاحبه، أو ينقل كلامًا صحيحًا إلى واقعة لا يشملها.

لذلك لا نختصر الانضباط المعرفي في وضع اسم مرجع أسفل الصفحة. المرجع بداية إمكان التحقق، وليس دليلًا تلقائيًا على أن المؤلف أحسن استعماله. يحتاج القارئ إلى أن يعرف أي موضع منه يدعم أي قول، وأن يفرق بين النص وبين تفسير

الكاتب له. وقد تكون الإحالة موجودة والدلالة أوسع من المصدر، فيصبح الخلل في الاستعمال لا في وجود الكتاب.

نقترح أن يرافق نقل المعنى سؤالان متلازمان: هل هذا ما قاله المصدر؟ وهل هذا هو الذي نريد إثباته؟ إذا قال البحث إن عاملين ارتبطا، فلا ننقل عنه أن أحدهما سبب الآخر. وإذا وصف المؤرخ حال فرد، فلا نجعلها عادة كل أهل عصره. وإذا أجاب العالم عن سؤال له ظروفه، فلا نحذف تلك الظروف ثم نوزع جوابه على كل حال.

ويعلمنا خبر ابن سيرين أن مسؤولية التلقي لا تنتهي بإحالة الخطأ إلى الناقل الأول. لا نملك فحص كل خبر بدرجة واحدة، لكن نستطيع أن نقلل ما نجزم به، وأن نميز بين ما عرفناه وما سمعناه فقط. وفي الأخبار المؤثرة في حقوق الناس، يزداد وزن هذا الواجب لأن كلفة الخطأ لا تقف عند القارئ.

التصحيح ليس هزيمة في مجلس العلم

من أصعب صور المجاهدة أن يعود الإنسان عن معلومة كان يثق بها. قد يكون قد نشرها بين أصحابه أو بنى عليها كلاماً طويلاً، فيشعر أن الاعتراف بالخطأ يضعف صورته. لكنه إن دافع عنها بعد ظهور الخلل انتقل من خطأ في المعرفة إلى

خطأ في الأمانة. أما التصحيح الواضح فيحفظ للناس إمكان الرجوع إلى الحق.

والتصحيح النافع يحدد ما تغير. لا يكفي أن يقول الكاتب: حدث سوء فهم، إذا كان قد نسب إلى المصدر ما لم يقله. يستطيع أن يقول: نقلت العبارة على هذا الوجه، ثم تبين أن قيداً سقط منها، والصواب كذا. وإذا كانت النتيجة كلها غير مدعومة فليبين ذلك، ولا يكتف بتغيير لفظ صغير يخفي أصل المشكلة.

وفي الوقت نفسه، لا يصبح كل تعديل سبباً لهدم جميع عمل صاحبه. قد يصح من بحثه أكثره ويحتاج موضع منه إلى إصلاح. المنهج العادل يفصل، ويتجنب مدحاً لا يرى الأخطاء وذمّاً لا يرى الصواب. هذا من انضباط الحكم نفسه: أن يكون حجم النتيجة مناسباً لحجم الدليل.

حالة افتراضية: نصيحة انتقلت إلى مدرسة

نتصور معلماً قرأ منشوراً يقول إن تدريباً قصيراً يزيد قدرة جميع الأطفال على الانتباه زيادة كبيرة. نقل المنشور إلى زملائه واقترح تعميمه. وحين سئل عن البحث، وجد أن المنشور أحال إلى دراسة صغيرة قاست أداءً في مهمة محددة، لا التحصيل المدرسي ولا الانضباط العام. لم يكن

البحث بالضرورة عديم الفائدة، لكن المسافة بين نتيجته وبين الإعلان عنه كانت واسعة.

الاستجابة المنضبطة لا تتوقف عند لوم صاحب المنشور. يعيد المعلم وصف ما عرف: هذه مهمة بحثية في عينة معينة؛ ولا نملك منها وعدًا عامًا. ثم ينظر هل للتدريب فائدة تربوية معقولة يمكن اختبارها بأمان دون إهدار وقت الطلاب. إن اختيرت تجربة محدودة، يحدد ما ستقيسه ويحفظ حق الأسرة والطفل، ولا يسميها برنامجًا مثبتًا قبل أن تكون كذلك. وفي مجلس المعلمين يمكن تحويل الواقعة إلى تعلم نافع: ما السؤال الذي كان ينبغي أن نسبق به الحماسة؟ من المشاركون؟ ما المقارنة؟ ما النتيجة الفعلية؟ هل بقيت؟ وهل توجد آثار غير مرغوبة؟ هذه أسئلة معاصرة خاصة بالبحث التجريبي، لا ننسب ألفاظها إلى ابن سيرين. لكنها تخدم مقصدًا مشتركًا: ألا تقود رغبة الخير إلى نسبة علمية لا تصح.

انضباط يحمل أثره إلى الحياة

يتجاوز هذا الباب مجلس الرواية؛ فالإنسان الذي يتعلم أن يقول «لا أعلم» في موضعها يقلل وعودًا لا يملكها، والذي يفرق بين أمانة الشخص وخبرته يحسن إسناد المسؤوليات،

والذي يصح نقله يتعلم أن الرجوع إلى الصواب أولى من المحافظة على صورة قديمة.

ولا تكون ثمرة هذا التعلم كثرة التحفظات حتى يضيع المعنى. المطلوب كلام واضح بحدود واضحة: ما ثبت نقوله، وما كان استنباطاً نبينه، وما غاب عنا نتركه. بذلك يصبح العلم معيناً على الاستقامة، لا مصدر ضجيج يضيف إلى كثرة المعلومات قليلاً من الفهم.

وحين نحمل كلمة إلى غيرنا، فلنسأل عن الحق الذي نحمله معها. قد تبقى الجملة في ذاكرته طويلاً، وتدخل في عبادته أو حكمه على الناس أو تربيته لطفله. إن صيانة الطريق الذي وصل منه العلم صورة من الوفاء لمن سيتلقاه بعدنا، حتى لو لم نعرف اسمه.

الفصل الثالث عشر: مدارس التعلم في القرن الثاني

من كثرة السماع إلى حسن البناء

قد يتصور طالب العلم أن نموه يقاس بعدد ما يجمعه: أسماء الكتب، وساعات الدروس، وكثرة ما يرويه من فوائد. وللجمع موضعه، لكنه لا يكفي ليصبح العلم بناءً يستطيع صاحبه أن يرجع إليه ويعمل به. قد تمتلئ الأوراق بمعلومات متفرقة، ثم يعجز صاحبها عن تمييز الأصل من الفرع، أو النص من شرح الناقل، أو القول المحفوظ من الرأي الذي يحتاج إلى نظر.

بين سماع العلم وحسن الانتفاع به مسافة يقطعها المتعلم بالاختيار والسؤال والمراجعة. وفي كلمات مالك و صدر موطئه ما يقرب هذه المعاني: ماذا ننقل؟ وكيف نربط المسألة بأصلها؟ ومتى نسأل حتى يتضح لنا ما سنعمل به؟

والفرق بين المدرسة الحية وبين صورة نرسمها لها من بعيد أن الأولى تجمع علمًا وأشخاصًا واختلافًا ومراجعةً، بينما قد تختصرها الصورة في شيخ يلقي وطلاب يحفظون. الذي نبحت عنه ليس مظهر المجلس، بل ما يعين المعرفة على أن تكون أدق وأوضح وأنفع.

لا يحدث المرء بكل ما سمع

قال مالك لابن وهب:

«اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع ولا يكون إمامًا
أبدأً وهو يحدث بكل ما سمع».¹⁰³

بين السماع والتحديث مسؤولية فرز، وتتأكد حين يكون
المنقول دينًا. ليس كل ما يصل إلى أذنك صالحًا لأن تنقله إلى
غيرك؛ فقد يكون الخطأ في لفظ لم تنتبه إليه أو نسبة لم
تعرف طريقها.

وقد يكون الامتناع عن النقل أشق على النفس من نقله. وجد
المتعلم عبارة مؤثرة، أو حكاية تجذب الناس، أو جوابًا يوافق
ما يريد؛ ثم ظهر أنه لا يعرف مصدرها. يحتاج هنا إلى أن
يترك شيئًا كان سيزيد إعجاب السامعين به. هذه مجاهدة
معرفية لا يظهر فيها تعب البدن، لكن يظهر فيها تقديم الأمانة
على لذة التأثير.

ولا يعني الانتقاء أن يخفي الإنسان ما يخالف رأيه. فرق بين
ترك ما لا يثبت، وبين اختيار الأدلة انتصارًا لنتيجة مسبقة.

103 مالك بن أنس، مقدمة صحيح مسلم، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع،

الأثر رقم ١٠

الأول يرفع جودة العلم، والثاني يضيق صورته حتى يخدم صاحبه. قد يكون الخبر صحيحًا ولا يخدم الرأي الذي نحبه، فيكون الواجب أن نراجع رأيًا أو نذكر اختلاف الدلالة، لا أن نحذفه من الصورة.

وفي حياتنا الرقمية تضاعفت سهولة الجمع؛ يكفي أن ننسخ النص حتى يصير في مكتبتنا. لكن سهولة الجمع لا تمنحنا فهمًا ولا حق نسبة. يستطيع القارئ أن يحتفظ بما يريد مراجعته، بشرط أن يميز في ذهنه ودفتره بين مادة قرأها وفهمها ومادة لم يفتحها بعد. قائمة المراجع ليست شهادة حضور في عقول أصحابها.

الموطأ: موضوع يجمع النص والسؤال

عن ابن شهاب:

«أن عمر بن عبد العزيز أخر الصلاة يومًا فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبره أن المغيرة بن شعبة أخر الصلاة يومًا وهو بالكوفة فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال ما هذا يا مغيرة أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: بهذا أمرت. فقال عمر بن عبد العزيز اعلم ما تحدث به يا عروة أو إن جبريل هو الذي أقام لرسول الله صلى الله عليه وسلم وقت الصلاة قال عروة كذلك كان بشير بن أبي مسعود الأنصاري يحدث عن أبيه».¹⁰⁴

«قال عروة ولقد حدثتني عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي العصر والشمس في حجرتها قبل أن تظهر».¹⁰⁵

الصلاة هنا عمل يؤدي في وقته، والمعرفة تعين على إصلاح الأداء. لم يمنع مقام عمر بن عبد العزيز عروة من تنبيهه، ولم يمنع التنبيه عمر من السؤال. يتقدم العلم حين يتسع المجلس للتصحيح والاستيضاح معاً، ويظل المقصود إصابة الحق.

وقد يسمع المتعلم النص وشرحه في مجلس واحد، فيختلط عليه بعد حين أيهما كلام المصدر وأيهما بيان المعلم. يفيد أنه

104 أبو مسعود الأنصاري وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، الموطأ، كتاب وقوت الصلاة، باب وقوت الصلاة، الروايتان ١ و ٢

105 أبو مسعود الأنصاري وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، الموطأ، كتاب وقوت الصلاة، باب وقوت الصلاة، الروايتان ١ و ٢

يميز بينهما وهو يتلقى؛ فإذا عاد إلى ملاحظاته عرف الأصل الذي يرجع إليه، ولم يحمل الشرح منزلة النص نفسه.

وترتيب المعرفة بحسب المسألة يسهل السؤال عنها: ما الأصل الذي نرجع إليه؟ ما حال الأداء؟ وما الذي يحتاج إلى تفسير أو جمع بين الشواهد؟ كلما عرف المتعلم موضع سؤاله صار رجوعه إلى أهل العلم أنفع.

لا ينتقل المتعلم إلى فرع فقد أصله

الترتيب ليس زينة للمكتبة. من يتعلم حكمًا ثم يفقد السؤال الذي جاء جوابًا عنه قد يضعه في غير موضعه. ومن يحفظ نتيجة فقهية ولا يعرف أنها اجتهاد في نصوص متعددة قد يتعامل معها كما لو كانت نصًا واحدًا لا مجال فيه للفهم. لذلك يحتاج التعلم إلى روابط تظهر مراتب المعرفة، لا إلى تكديس صفحات متجاورة.

لنتصور طالبًا يجمع ما يقرأه في أربعة مواضع واضحة: النص الذي اعتمد عليه، والمعنى الذي فهمه، والسؤال الذي بقي، والتطبيق الذي يستطيع أدائه. تفيد هذه الطريقة في أنها تمنع أن يختبئ ما لم يفهمه بين الأشياء التي حفظها. حين يرجع الطالب إلى المعلم يأتي بسؤال محدد، لا بعبارة واسعة: لم أفهم شيئًا.

وفي المراجعة يظهر فرق بين إعادة القراءة وبين إعادة البناء. يستطيع المتعلم أن يمر بعينه على الصفحة مرات، ثم إذا أغلقها لم يعرف كيف يشرح الفكرة. ولنختبر فهمنا: هل نستطيع أن نرد المسألة إلى أصلها؟ هل نعرف أين يتوقف يقيننا؟ وهل نميز النص الذي قرأناه من تعليق أضفناه؟

ومن حسن الأدب مع العلم ألا يغطي الاسم الكبير عجزنا عن الفهم. قد يكرر الإنسان: قال مالك، أو قال غيره من الأئمة، دون أن يعرف أي مسألة تكلم فيها العالم، وأي قيد ذكره. يزداد النقل أمانة عندما يستعيد سياقه، لا عندما يكثر فيه ذكر الأسماء.

احترام المعلم لا يلغي السؤال

السؤال الذي يحفظ دقة الفهم من احترام العلم. وقد رأينا في الخبر السابق كيف بقي باب الاستيضاح مفتوحًا بعد التنبيه. يحتاج المتعلم إلى هذا الاطمئنان: أن يقول ما لم يفهمه دون خجل، وأن يتلقى البيان دون مكابرة.

أما في التطبيق، فالسؤال يحتاج إلى أدبه كما يحتاج الجواب إلى صدقه. نسأل عما لم نفهم، ونميز بين طلب البيان والرغبة في إحراج المعلم. وإذا ظهر أن المسألة فوق ما نعرف، لم نستعمل نصف معلومة لنحكم على علم غيرنا كله. وفي الجهة

المقابلة، لا يحسن بالمعلم أن يجعل كل استيضاح تمرّدًا، فيتعلم الطلاب الصمت بدل الفهم.

والتربية على السؤال تنفع صاحبها خارج المجلس. الموظف الذي يطلب تحديد المطلوب قبل تنفيذه لا يعطل العمل بالضرورة؛ ربما يمنع خطأ مكلفًا. والطبيب الذي يطلب بيانات لازمة لا يكون أقل خبرة من الواثق بغير بينة. لكن السؤال نفسه قد يصير تأجيلًا إذا تكرر بعد كفاية البيان. لذلك نحتاج إلى حسن تقدير: ما المعلومة التي ستغير الفعل فعلاً، وما الذي نجمعه هربًا من البداية؟

المعرفة التي تخرج من صاحبها إلى الناس

ليس انتظام التلقي غاية منفصلة عن النفع. مادة الوقت في الموطأ تتعلق بصلاة تؤدي، لا بمسألة تعيش في الورق وحده. ويمكن أن نأخذ هذا المعنى إلى تعلمنا: ما الذي صار أوضح في عبادتنا أو معاملتنا أو مسؤوليتنا بعد أن قرأنا؟ لا يلزم أن يكون لكل صفحة أثر فوري ظاهر، فبعض التعلم تراكمي؛ لكن غياب أي صلة بالعمل زمنًا طويلًا يستحق أن نسأل عن وجهتنا.

قد يكون العمل بالعلم أن يصحح القارئ حكمًا كان ينسبه بغير تثبت، أو أن يتوقف عن إصدار فتوى لا يحسنها، أو أن يعلم

مسألة عرفها على وجهها. وقد يكون أن يترك ثقة زائدة بمعلومة قديمة، فيرجع إلى السؤال من جديد. هذه أعمال هادئة، لكنها تبين أن العلم لم يبق مجموعة عبارات تشهد على ثقافة صاحبها فقط.

ولا نلزم القارئ أن يصبح معلّمًا عامًّا بمجرد أنه فهم درسًا. نقل القدر المعلوم يختلف عن التصدر لما لم يتعلمه. من الانضباط أن يعرف الإنسان حجم ما يستطيع بيانه، وأن يقول في غيره إنه يحتاج إلى الرجوع. بذلك يحفظ لنفسه طريق النمو، ويحفظ لمن يسأله حق الجواب الموثوق.

تجربة افتراضية في مجلس قراءة

يجتمع ثلاثة قراء على باب قصير من كتاب علمي. كان الأول يقترح زيادة الصفحات كل أسبوع، والثاني يحفظ التعريفات، والثالث يكثر من الأسئلة. تبدو هذه الأدوار متعارضة، لكنها يمكن أن تتكامل إذا اتفقوا على غرض واضح. يقرأون مقدارًا معلومًا، ثم يشرح كل واحد فكرة بلغ فهمها، ويحددون المسألة التي تحتاج إلى معلم أو مصدر آخر.

في أول مراجعة اكتشفوا أنهم يكررون لفظًا لا يتفقون على معناه. لو كان مقياس نجاحهم إنهاء الصفحات فقط، لتجاوزوا الخل وحملوه إلى أبواب لاحقة. توقفوا عنده، ثم رجعوا بعد

اتضاحه. ليس هذا بطئًا دائمًا مطلوبًا لكل مادة؛ إنه مثال على أن تعديل السرعة قد يحمي الطريق من إكمال شكلي.

ثم فرقوا في ملاحظاتهم بين ما قاله الكتاب وما اقترحوه لتطبيقه. هذه الخطوة الصغيرة جعلت النقاش أهدأ: لم يعد الاعتراض على التطبيق يُفهم اعتراضًا على كلام المؤلف نفسه. وهكذا صار ترتيب المعرفة ترتيبًا للعلاقة أيضًا، لأن الناس عرفوا ما يختلفون فيه بدل أن يتنازعوا على عبارات متداخلة.

كثرة لا تبني إلا بعد أن تُحسن صلتها

حسن التعلم اختيار وبناء وأداء. تختار ما تنقله بأمانة، وتصل المسألة بأصلها، وتراجع ما فهمته حتى يستقيم لك. وحين تخرج المعرفة إلى عمل، يظهر أثر ترتيبها في قرار أصوب أو عبادة أحسن أو حق أدّي بأمانة.

قد لا تزيد جلسة المراجعة عدد الكتب في قائمتك، لكنها قد تجعل كتابًا واحدًا أنفع لك. وقد لا يمنحك ترك خبر غير ثابت إعجاب مجلس، لكنه يحفظ لمن يسمعك حقًا. وإذا استقام البناء على هذا، أصبحت الكثرة التي تأتي بعده زيادة في العلم، لا زيادة في الفوضى التي تحمل اسم العلم.

الفصل الرابع عشر: ابن المبارك: أعمال متوازنة وأثر ممتد

ما وراء صورة العالم الذي يفعل كل شيء

تجذبنا سيرة الإنسان الذي اتسعت أعماله، فنقرأها أحياناً كما نقرأ قائمة إنجازات: علم، وعبادة، وكسب، وبذل، وأسفار. ثم نغلق الكتاب وفي أنفسنا شعور بأن الصالح لا بد أن يجمع كل ذلك بالمقادير نفسها. لكن السيرة النافعة لا تحملنا على نسخ حجم حياة غيرنا؛ تعيننا على فهم الوجهة التي جمعت أعماله، والحدود التي حفظت له الأمانة بينها.

نقل الذهبي عن العباس بن مصعب:

«جمع عبد الله الحديث، والفقه، والعربية، وأيام الناس، والشجاعة، والسخاء، والتجارة، والمحبة عند الفرق».¹⁰⁶

تتنوع الأبواب ويبقى صاحبها واحداً. وما ينفعنا في هذه الصحبة أن نسأل عن الصلة بين العلم والعمل والبذل، وعن الأمانة التي تحفظ هذه الأعمال حين تتزاحم.

106 محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، ترجمة عبد الله بن المبارك،

٣٧٩-٨/٣٨٣، افتتاح الترجمة والتعريف بمجالاته

وتقربنا مواقفه في نقد الرواية من هذه الأمانة؛ فالعناية بصحة ما ينقله جزء من نفع الناس. لا يكفي أن يعجبهم الكلام، بل ينبغي أن يجدوا وراءه علمًا يصح الرجوع إليه.

قبل جمال المعنى: أين الطريق إلى النبي؟

قال عبد الله بن المبارك:

«الإسناد من الدين ولولا الإسناد لقال من شاء ما شاء».¹⁰⁷

وقال أبو إسحاق إبراهيم بن عيسى الطالقاني:

«قلت لعبد الله بن المبارك يا أبا عبد الرحمن الحديث الذي جاء: إن من البر بعد البر أن تصلي لأبويك مع صلاتك وتصوم لهما مع صومك. قال فقال عبد الله يا أبا إسحاق عمن هذا قال قلت له هذا من حديث شهاب بن خراش. فقال ثقة عمن قال قلت عن الحجاج بن دينار. قال ثقة عمن قال قلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال يا أبا إسحاق إن بين الحجاج

107 عبد الله بن المبارك، مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٣٢

بن دينار وبين النبي صلى الله عليه وسلم مفاوز تنقطع فيها أعناق المطي ولكن ليس في الصدقة اختلاف».¹⁰⁸

لم يكن جمال المعنى كافياً لتجاوز السؤال. يتتبع ابن المبارك الطريق حلقة حلقة، حتى يكشف ما سقط منه. وحب بر الوالدين لا يبيح أن ننسب إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ما لم يثبت عنه؛ فصدق المحبة يظهر أيضاً في حفظ كلامه.

هذه الدقة تحتاج إلى صبر مختلف عن صبر الجهد البدني. الناقد يستطيع أن يوافق على خبر يسر الناس ويحثهم على البر، لكنه يختار أن يسأل حتى تتبين منزلته. وربما بدا السؤال للسائل تعقيداً لفكرة حسنة، مع أنه يحفظ أصلاً أكبر: ألا تصبح صلاحية الغاية رخصة في نسبة ما لا نعلم.

وفي البحث المعاصر نظير تقريبي لهذا الخلل، لا مطابق اصطلاحى له: يملك الكاتب عنوان دراسة واسم مجلة ورقماً إحصائياً، ثم يترك الحلقة التي تصل هذه الأشياء بالادعاء الذي يعلنه. قد تكون الدراسة منشورة فعلاً، لكن هل قاست النتيجة نفسها؟ هل كانت تجربتها على الفئة التي نتحدث

108 عبد الله بن المبارك، مقدمة صحيح مسلم، باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٣٢

عنها؟ وهل تثبت سبباً أم علاقة؟ ليست المشكلة في وجود المرجع وحده، بل في صحة الطريق من المرجع إلى القول.

الإنصاف عند نقد من له عبادة

قال عبد الله بن المبارك:

«قلت لسفيان الثوري إن عباد بن كثير من تعرف حاله. وإذا حدث جاء بأمر عظيم فترى أن أقول للناس لا تأخذوا عنه قال سفيان بلى. قال عبد الله فكنت إذا كنت في مجلس ذكر فيه عباد أثنت عليه في دينه وأقول لا تأخذوا عنه».¹⁰⁹

الذي يلفت النظر اجتماع أمرين لا يتناقضان: الاعتراف بفضل ظاهر، والامتناع عن قبول ما لا يضبطه صاحبه. لا تدعو الأمانة إلى أن نمحو عبادته حتى يصح نقد روايته، ولا تدعو محبته إلى أن نسكت عن خلل يتعدى أثره إلى الناس.

وهذه قدرة نحتاجها في خلافاتنا. قد يخطئ إنسان نحترمه في قول أو مهمة، فنشعر أن أماننا خيارين: الدفاع عنه في كل شيء أو الانتقال إلى ذمه في كل شيء. الخبر يعلمنا أن الحكم يمكن أن يكون أدق. نحفظ الصحيح من فضله، ونحدد

109 عبد الله بن المبارك، مقدمة صحيح مسلم، باب الكشف عن معاييب رواة

الحديث ونقلة الأخبار وقول الأئمة في ذلك، الأثر رقم ٣٨

موضع الاعتراض ودليله، ولا نستعمل الأسماء العامة بدل التمييز.

وفي فريق عمل قد يكون زميل أمينًا مجتهدًا، لكنه لا يتقن مراجعة الأرقام. احترامه لا يوجب أن نعطيه مسؤولية لا يحسنها، ونقلها إلى المختص لا يوجب أن نجعله قليل القيمة. وفي التعليم قد يحسن شخص التوجيه الوجداني، ولا يحسن تخريج النصوص. يمكن أن ينتفع الناس بما يحسنه مع الرجوع إلى غيره فيما لا يحسنه؛ أما الصورة الشاملة التي تمنحه سلطة في كل باب فقد تضره وتضرهم.

تنوع الأعمال يحتاج إلى خيط يجمعه

يمكن لأعمال مختلفة أن يعين بعضها بعضًا: يغذي التعلم حسن العمل، ويتيح الكسب بذلاً، وتكشف خدمة الناس ما يحتاجه المرء من مزيد علم. غير أن كثرة الأبواب لا تعفي من ترتيب الحقوق؛ فقد يحسن الإنسان عملاً محدودًا، ويكون نفعه فيه أعظم من تشتته في أعمال لا يتمها.

ومن هنا ينشأ سؤال نافع: هل تنوع أعمالنا يخدم مقاصد واضحة، أم يشتتنا بين صور نريد امتلاكها؟ قد يكون الكسب معينًا على الاستقلال والبذل، وقد يصبح استغراقًا لا ينتهي. وقد يكون التعلم إعدادًا لخدمة، وقد يصبح جمعًا للمكانة دون

أداء. اتصال الأعمال بغاياتها هو الذي يحتاج إلى المراجعة؛ فليس كل تعدد توازنًا، ولا كل ترك لبعض الأبواب نقصًا.

والتوازن لا يساوي التقسيم المتساوي للوقت. قد يستغرق حق عاجل أكثر اليوم، وتأتي مرحلة تعلم تحتاج إلى تركيز، ثم مرحلة أداء ينتفع بها غيرنا. ما يحفظ الاستقامة هو ألا يغيب أصل الواجب والحق تحت حماسة الباب الذي نحبه. في هذا المعنى يمكن للإنسان أن يكون صاحب تخصص محدود وأثر واسع، إذا أحسن ما يتولاه ووصل عمله بمن يكمله.

ومن الخطأ أن نقرأ البذل التاريخي وكأنه وعد بأن التجارة الناجحة ثمرة آلية للصالح، أو أن من قل ماله أقل انضباطًا. السيرة ليست تجربة تعزل أسباب الغنى والفقر. يكفيننا أن نرى في الوصف استعمال بعض ما أتيح في وجوه نفع، ثم نسأل عن المتاح لنا نحن: مال، أو علم، أو وقت، أو خبرة، أو مساندة تحفظ حقًا.

الأثر الذي يبقى ليس محصورًا في اسم صاحبه

قد يكون أشد ما يبقى من العالم عبارةً تعلمنا بها كيف نراجع علمنا، لا خبرًا يدهشنا عن كثرة أعماله. حين يوقف ابن المبارك نسبة غير متصلة، فإنه يحفظ للمتلقي الذي لم يولد بعد حق

المعرفة الصحيحة. وحين يفرق بين صلاح الراوي ودقة روايته، يترك لنا أداة إنصاف تتجاوز الشخص الذي تكلم فيه.

هذا نوع من الأثر لا يقاس بعدد من سمع القصة فقط. قد يمنع نقلًا خاطئًا، أو يغير طريقة مؤلف، أو يعلم قارئًا أن وجود الاسم الجليل في السند لا يغني عن بقية الطريق. والذي يعمل في مشروع نافع يستطيع أن يسأل السؤال نفسه: ما الذي سيبقى صالحًا للاستعمال بعد غيابي؟ هل تركت معلومات يمكن التحقق منها، أم تركت اعتمادًا على ثقتهم بي وحدي؟

في الأعمال العلمية والتعليمية، يكون التوثيق جزءًا من البذل. يتيح لمن بعدك أن يراجع، ويصحح، ويواصل. أما إخفاء المصادر أو الخلط بين ما قرأته وما سمعت به فيجعل عملك أصعب على غيرك، مهما كان قصدك حسنًا. لا نحتاج أن نزعم أن القدماء امتلكوا أدواتنا؛ يكفي أن نحسن استعمال ما أتيح لنا في حفظ الأمانة نفسها.

حالة افتراضية: مشروع نافع يرفض اختصارًا مغريًا

يتولى قارئ إعداد مادة تربوية لأسرته وزملائه. وجد قصة مؤثرة في التضحية، ورأى أن إدراجها سيقرب الفكرة. عند الرجوع إلى مصدرها تبين أنها حكاية للموعظة، فحافظ على

صيغة المصدر، وأثبت نصها كما ورد، ووضع تنبيهًا موجزًا في الحاشية. ثم شرح المعنى الصحيح الذي تنفع في إيضاحه، دون أن يبني عليها حكمًا أو ينسب تفاصيل لم ترد فيها.

وكانت لديه رسالة أخرى تنسب قولاً إلى النبي صلى الله عليه وسلم ولم يجد له أصلاً متحققاً؛ فأوقفه حتى يتبين، واستعاض عنه بشاهد صحيح يخدم المقصود. هكذا بقيت الموعظة مؤثرة، وبقي الفرق واضحاً بين حكاية ننتفع بعبرتها ودليل نعتمد عليه.

ثم اكتشف خطأ صغيراً في إحالة سبق أن نشرها. يصححها في الأصل ويبلغ من وصلت إليه النسخة إذا كان الخطأ مؤثراً. هذه ليست بطولة يطلب لها الثناء؛ إنها صورة عملية للأمانة. ولو ترك الخطأ خوفاً على صورته ل زاد عدد من يتلقونه، ثم صعب عليهم الفصل بين النص الصحيح والصورة المشهورة.

صحبة ترفع الهمة وتضبطها

تثمر هذه الصحبة ثلاثة معانٍ قريبة من العمل: أمانة النسبة، والإنصاف في النقد، وربط تنوع الأعمال بحقوق تخدمها. يستطيع القارئ أن يبدأ بما بين يديه، وأن يتقن دوره دون أن يحمل نفسه مقادير حياة شخص آخر.

وقد تبدو هذه المعايير أقل إثارة من أرقام الإنفاق والسفر والقيام، لكنها أقرب إلى أن تصنع فرقاً في حياة القارئ. يستطيع أن يعمل بها اليوم وهو يراجع خبراً، أو يختار صاحب مهمة، أو يكتب شيئاً سينتفع به آخر. وهكذا تصبح السيرة صحبةً للتعلم، لا مقياساً يعجز الإنسان أمامه ثم يغلق الكتاب.

الفصل الخامس عشر: القرن الثالث وضبط التعليم

من أدب المجلس إلى مسؤولية المهنة

لا يكتمل الحديث عن انضباط المتعلم إذا غاب المعلم من المساءلة. قد نطلب من الصغير حضورًا وانتباهًا وواجبًا منجزًا، بينما يبقى ما على الكبير غامضًا: هل أعد الدرس؟ هل حفظ الوقت الذي التزم به؟ هل اختار من التكرار ما يحقق الفهم؟ وهل عامل الطلاب بعدل حين اختلفت أسرهم وقدراتهم؟ التربية ليست مجموعة مطالب تنزل في اتجاه واحد.

للتعليم حق على صاحبه قبل أن يكون له حق على طلابه. يختار ما يقرب المعنى، ويفتح وقتًا لمن يحتاج إليه، ويحفظ من الأمانة قدر ما يطالبهم به. بهذه الوجهة تصبح المهنة خدمة تنمو بالعلم والعدل.

التكرار الذي يقصد الفهم

عن أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم:

«أنه كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثاً حتى تفهم عنه، وإذا أتى على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً».¹¹⁰

الفهم غرض الإعادة. فالتكرار الذي نريد تعلمه وسيلة إلى وصول المعنى، لا حركة لفظية نؤديها لنقول إننا شرحنا.

قد يكرر المعلم الجملة نفسها بصوت أعلى، بينما بقي اللفظ الذي لم يفهمه الطالب كما هو. وقد يعيد الأب أمراً واسعاً عشر مرات، دون أن يتبين هل يعرف الطفل أول خطوة فيه. لا يثبت الحديث طريقة واحدة لشرح كل مسألة، لكن غرض الفهم يردنا إلى سؤال عملي: ما الذي صار أوضح للمتلقي بعد الإعادة؟

ومن تطبيقنا أن يطلب المعلم من المتعلم أن يبين المعنى بلغته أو يؤدي الخطوة التي تعلمها، ثم يعرف من ذلك ما يحتاج إلى تصحيح. ومن الخطأ أن تصبح كثرة الشرح عذراً

110 من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثاً ليفهم عنه، رقم الحديث ٩٥

دائمًا لعدم النظر في نتيجه: لقد قلت لهم، إذن انتهت مسؤوليتي.

الوقت الذي يتيح لمن لم يصل

عن أبي سعيد الخدري:

«قالت النساء للنبي صلى الله عليه وسلم غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك. فوعدهن يومًا لقيهن فيه، فوعظهن وأمرهن، فكان فيما قال لهن: ما منكن امرأة تقدم ثلاثة من ولدها إلا كان لها حجابًا من النار. فقالت امرأة واثنين فقال: واثنين».¹¹¹

طلبن فرصة للعلم، فصار لهن موعد يجمعهن بالبيان والموعظة. يلتقي الوقت المعلوم بحاجة من لم تتح لهن الفرصة نفسها؛ وتظهر عناية المعلم بمن يريد الوصول إليه.

هذا الشاهد يوسع مفهوم الانضباط التعليمي. لا يكفي أن تكون المحاضرة في موعدها، إذا كانت طريقة إتاحتها تمنع بعض من خُصصت لهم من الانتفاع. قد يحتاج البرنامج إلى

111 من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم، رقم الحديث ١٠١

وقت آخر أو طريقة تواصل أو شرح مختلف. وتختلف الوسيلة باختلاف حاجة المتعلمين وظروفهم.

وحين يوضع الموعد لخدمة التعلم، يصبح الوفاء به حقًا متبادلًا. ينتظر المتعلم بيانًا مناسبًا، ويأتي مستعدًا بما يستطيع، ويحفظ المعلم التزامه، ولا يجعل الوقت ملكًا يتصرف فيه كيف شاء بعد أن بنى الناس عليه يومهم. انتظام المؤسسة يبدأ من هذه العلاقة قبل أن يبدأ من لوحة حضور جميلة.

ابن سحنون: ماذا يدين به المعلم لطلابه؟

جاء في آداب المعلمين:

«قلت: فهل ترى للمُعلم أن يكتب لنفسه كتب الفقه أو لغيره؟ قال: أما في وقت فراغه من الصبيان فلا بأس أن يكتب لنفسه وللناس، مثل أن يأذن لهم في الانقلاب، وأما ما داموا حوله فلا، ولا يجوز له ذلك؛ وكيف يجوز له أن يخرج مما يلزمه النَظر فيه لما لا يلزمه؟ ألا ترى أنه لا يجوز له أن يُوكَل تعليم بعضهم إلى بعض، فكيف يشتغل بغيرهم؟»¹¹²

112 محمد بن سحنون، آداب المعلمين، نص الرسالة الملحق بكتاب التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني؛ أبواب تعليم القرآن وأجرة المعلم والتعليم والإشراف

نحن أمام نظر إلى التعليم بوصفه أمانةً وعملاً له أصحاب حقوق، لا موعظة في الاجتهاد فحسب. أجرة المعلم ليست ثمناً للحضور الجسدي المجرد، وحق الطالب لا ينتهي لأن المعلم مشغول بشيء نافع لنفسه. قد يكون العمل الذي زاحم التعليم خيراً في ذاته، لكنه ليس أولى تلقائياً بالوقت الذي التزم به صاحبه لغيره.

وهذا المعنى يستحق الوقوف في حياتنا. موظف يطيل عملاً تطوعياً في وقت تعاقد على أداء خدمة فيه، أو معلم يستعمل الحصة في شؤونه، لا يكفيه أن يصف ما يفعله بأنه نافع. يحتاج أن يسأل عن الحق الذي يملك التصرف فيه والحق الذي لا يملكه. الانضباط ليس فقط ما نضيفه إلى يومنا، بل ما نحفظه لمن ائتمنا على جزء منه.

المتعلم الذي أمامك أمانة حاضرة. قد يكون إعدادك لعمل قادم نافعاً، لكن عنايتك به لا تبرر أن يضيع من ينتظرون شرحك الآن. رتب وقت الإعداد ووقت التعليم بحيث لا يأكل أحدهما حق الآخر، واستعن بمن يكمل عملك حين تحتاج إلى عون.

العدل والتعليم الفعلي لا صورة الفراغ منه

وجاء في آداب المعلمين:

«وليعلمهم الأدب فإنه من الواجب لله عليه النصيحة وحفظهم ورعايتهم».¹¹³

الرعاية حق لكل متعلم؛ فلا تجعل مكانة أسرته أو سهولة تعليمه سببًا لاستثثاره بانتباهك، ولا تترك المتعثر لأنه يحتاج إلى صبر أطول. ويبدأ العدل بأن يرى المعلم من في مجلسه جميعًا، ويسأل عما يعين كل واحد على التعلم.

والعدل لا يعني أن نعطي كل طالب المقدار نفسه من الكلام ونمضي. قد يحتاج أحدهم إلى إعادة ووسيلة مساعدة، ويحتاج آخر إلى مهمة أعمق. الذي ينبغي أن يتساوى هو حفظ الحق والكرامة وعدم المحاباة؛ أما صورة المساندة فتتبع الحاجة والقدرة.

وفي بعض أعمالنا المعاصرة، يُعرف نجاح البرنامج بإنهاء المحتوى المعلن، حتى لو بقي الطلاب لا يستطيعون استعماله.

113 محمد بن سحنون، آداب المعلمين، نص الرسالة الملحق بكتاب التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني؛ أبواب تعليم القرآن وأجرة المعلم والتعليم والإشراف

نحتاج إلى سؤال آخر: ماذا صار المتعلم يعرف أو يؤدي؟ لا يمحو هذا أهمية إكمال المنهج، لكنه يمنع أن يتحول الإكمال إلى رقم يعفي من النظر في التعلم.

الحزم الذي يحفظ كرامة المتعلم

قد يختلط الحزم برغبة المعلم في أن تنفذ أوامره سريعًا. فإذا تأخر الفهم أو تكرر الخطأ، ضاق به بدل أن يسأل عن سببه. يحتاج ضبط التعليم إلى فصل الخطأ عن صاحبه: نصح الأداء، ونوضح المطلوب، ونحفظ للمتعلم فرصة أخرى لا يدخلها خائفًا من الإهانة.

لا يحتاج هذا الحزم إلى إيذاء أو تعطيش أو حرمان البدن حقه. يبدأ بقاعدة مفهومة، ومتابعة عادلة، ومساندة مناسبة. وإذا كان الخطأ تعديًا على زميل، شمل الإصلاح وقف الأذى ورد الحق وتعليم صاحبه كيف يتصرف في المرة التالية. أما جعل الألم غاية في ذاته فلا يبني فهمًا للمسؤولية.

ويشمل الانضباط مراجعة الكبير لنفسه: هل بالغ في المطلوب؟ هل بينه بوضوح؟ وهل عاقب على أمر لم يعلمه؟ حين يقدر المعلم على تصحيح خطئه يفتح للطلاب طريقًا عمليًا للاعتراف بأخطائهم وإصلاحها.

المراجعة والاتفاق: تنظيم لا تشريع جديد

جاء في آداب المعلمين:

«وليجعل الكتاب من الضحى إلى وقت الانقلاب. ولا بأس أن يجعلهم يُملي بعضهم على بعض؛ لأن ذلك منفعة لهم، وليتفقد إملأهم. ولا يجوز أن ينقلهم من سورة إلى سورة، حتى يحفظوها بإعرابها وكتابتها، إلا أن يُسهّل له الآباء.

فإن لم يكن لهم آباء وكان لهم أولياء أو وصيّ، فإن كان دفع أجر المعلم من غير مال الصبي إنما هو من عنده، فله أن يُسهّل للمعلم كما للأب، وإن كان من مال الصبي يُعطي الأجرة، لم يجز أن يُسهّل للمعلم أن يُخرجه من السورة حتى يحفظها كما علمت، وكذلك إن كان الأب يُعطي من مال الصبي؛ قال وأرى ما يلزم الصبي من مؤنة المعلم في ماله إن كان له مال بمنزلة كسوته ونفقته».¹¹⁴

يحضر في النص موعد التعليم، والتفقد، وحفظ ما تعلمه الصبي قبل الانتقال. ويساعدنا هذا على النظر في قيمة

114 محمد بن سحنون، آداب المعلمين، نص الرسالة الملحق بكتاب التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني؛ أبواب تعليم القرآن وأجرة المعلم والتعليم والإشراف

الوقت المخصص للتعلم: ماذا أتم الطالب منه فعلاً، وما الذي بقي محتاجاً إلى مراجعة؟

يمكن أن ينظم المعلم اليوم مراجعة أسبوعية أو اختباراً قصيراً أو وقتاً للأسئلة، بحسب المادة وقدرة المتعلمين. الذي يهم أن يعرف أصحاب العلاقة ما اتفق عليه، وما الذي تغير ولماذا، وأن يكون الوقت المخصص للتعلم ذا فائدة. الاتفاق الواضح يرفع النزاع، لكنه لا يمنح المعلم حق إسقاط ما يجب عليه من البيان والرعاية.

وإذا تعارض جدول المراجعة مع حاجة حقيقية، جاز النظر في تعديله في حدود الصلاحية والحقوق. لا يكون كل تغيير فوضى؛ الفوضى أن تتبدل القاعدة دون بيان حتى لا يستطيع أحد أن يعتمد عليها. أما التعديل المعلن المبني على سبب فجزء من الانضباط، لأنه يحفظ المقصد بدل أن يعبد صورة الإجراء.

حالة افتراضية: حصة انتهت ولم يتعلم بعض أصحابها

أنهى معلم شرح مهارة في الوقت المحدد، وأتم معظم الطلاب التدريب، وبقي عدد لا يعرف من أين يبدأ. كان يستطيع أن يسجل الدرس «منجزاً» ويمضي، لكنه اختار أن يميز بين

انتهاء عرضه واكتمال تعلم الجميع. طلب أداءً قصيرًا يبين موضع الخل، فظهر أن بعضهم لم يفهم مصطلحًا سابقًا لا المهارة الجديدة نفسها.

رتب مراجعة محدودة لذلك المصطلح، وأعطى من أتقن المهمة نشاطًا مناسبًا دون أن يجعله مسؤولاً عن تأديب زملائه أو حمل عبء المعلم. ثم أوضح للطلاب ما سيفعلونه في اللقاء التالي.

وفي نهاية الأسبوع راجع المعلم عمله: هل كان المطلوب واضحًا؟ هل ظهر التعثر مبكرًا؟ هل ساعدت المراجعة؟ وهل بقيت خصوصية الطلاب محفوظة؟ تصبح المؤسسة أكثر انضباطًا حين تسأل عن أداء الكبير أيضًا، ولا تجعل دفتر المخالفات هو المكان الوحيد الذي تظهر فيه كلمة مسؤولية.

أثر القرن الذي بقي في طريقة القراءة

تدلنا هذه الأحاديث على أن تكرار البيان وإتاحة وقته للمتلقي يدخلان في النظر إلى العلم. وتدلنا نافذة ابن سحنون على أن مهنة التعليم نوقشت مبكرًا من جهة ما على المعلم من التزام وعدل وأداء. تختلف منزلة الأدلة، لكن أسئلتها تردنا إلى أصل واحد: لا تطلب انضباطًا من المتعلم ثم تجعل تعليمه بلا ضوابط.

وما نريد أن يبقى هو هذا الحس بالحق. حين يدخل طفل أو راشد ليتعلم، لا يدخل ليمنح البرنامج رقمًا إضافيًا، بل ليخرج بشيء ينفعه. حفظ هذا المعنى في الإعداد والبيان والتوقيت والتقويم من أعماق صور الانضباط؛ لأنه يجعل قوة النظام في خدمة الإنسان، لا يجعل الإنسان مادة يثبت بها النظام نجاحه.

الفصل السادس عشر: قراءة أخبار الزهد بميزان صحيح

الحكاية المؤثرة ليست الدليل نفسه

يخرج القارئ أحياناً من قصة قصيرة بما لا يخرج به من فصل طويل. يرى إنساناً أثر الحق على رغبة، أو ثبت في طريق شاق، فيشعر أن ما يستثقله يمكن احتماله. وهذه فائدة لا ينبغي إنكارها. لكن قوة أثر الحكاية لا تخبرنا عن ثبوتها، كما أن صحة معنى عام لا تثبت أن شخصاً بعينه قال الجملة التي نسبت إليه.

تشدد حاجتنا إلى هذا الفرق في أخبار الزهد والمجاهدة. قد تنفع حكاية مروية في باب الموعظة بمعنى صحيح، دون أن نجزم بوقوعها أو نبني عليها حكماً أو اعتقاداً. وقد يثبت فعل عن شخص، ولا يصح أن نجعله سنة عامة أو تدريباً ملزماً لكل قارئ. الانتفاع بالقصة شيء، وإلزام الناس بما فيها شيء آخر.

ليس غرض هذا الفصل أن يجرد القراءة من وجدانها. نريد وجداناً يصحبه علم يحفظه من الاندفاع إلى ما لا يثبت أو لا يصلح. حين يميز القارئ منازل الأخبار يستطيع أن ينتفع بالنص من غير أن يحمل عليه أكثر مما يحتمل، وأن يحترم صاحبه من غير أن ينسب إليه صورة صنعها الخيال.

ثلاثة أسئلة لا ندمجها

السؤال الأول: هل ثبت الخبر عن صاحبه؟ هذا سؤال النقل، يتصل بالمصدر والطريق واللفظ، وقد يحتاج إلى تحقيق لا يملكه كل قارئ. السؤال الثاني: ما المعنى الذي يدل عليه إذا ثبت؟ قد يتحدث عن حال خاصة أو اجتهاد شخصي، لا قاعدة عامة. السؤال الثالث: هل يصح التطبيق الذي نريد نقله إلى حياتنا؟ هنا تدخل المشروعية والقدرة والحقوق والسلامة.

قد يجيب الكاتب عن السؤال الثالث بقوله إن الفكرة نافعة، ثم يتصرف كأنه أجاب عن الأول. وربما يقول إن الرواية في كتاب مشهور، فيتجاوز السؤال عن دلالتها. وربما يثبت خبراً عن عالم ثم يحول اجتهاده إلى تكليف لجميع الناس. هذه انتقالات مختلفة، لكنها تشترك في اختصار الطريق بين الإعجاب والعمل.

وعند القراءة يكفي أن تعرف نوع ما بين يديك: دليل تعمل به، أو حكاية تعتبر بمعناها، أو اجتهاد تنظر في ملاءمته. أما تفصيل الطرق واختلاف الألفاظ فله أهله ومراجعته. لا يلزم أن يصير كل قارئ محققاً، لكن يلزمه ألا يحول إعجابه بقصة إلى تكليف لنفسه أو لغيره.

خذ العبرة التي تصلح لك

أحسن ما تعود به من قراءة نافعة خطوة صالحة تستطيع أدائها. وقد مر في الفصل الرابع معنى التلطف بالنفس والتصبر؛ فمن تطبيقه أن تقسم المهمة الشاقة، وتبدأ بقدر واضح، ثم تراجع قدرتك قبل أن تزيد. لا تجعل حماسك يدفعك إلى إيذاء بدنك أو إهمال حق من حولك.

ابدأ بمشقة لها غاية صحيحة: إتمام عمل وعدت به، أو الاعتذار عن أخطاء في حقه، أو مراجعة درس تعثرت فيه. تحتاج هذه الأعمال إلى صبر، لكنها لا تحتاج إلى اختراع ألم يزيد صعوبتها. حين تحسن اختيار ما تصبر عليه، تصبح المجاهدة عونًا على أداء الحقوق.

وفي طريقك موضع للراحة والاستعانة. قد تستطيع إكمال المهمة بعد استراحة، وقد تحتاج أن تسأل من يعلمك، وقد يلزمك تعديل حجمها. راجع الوسيلة وأنت تحفظ الغاية، ولا تجعل صورة البداية عهدًا يمنعك من تصحيح الطريق.

الخبر الاستثنائي لا يصبح معيارًا عامًا

قد ترد أخبار عن كثرة عبادة إنسان أو قوة احتماله. وحتى حيث يثبت الخبر، لا يلزم أن يملك كل قارئ قدرة صاحبه أو ظروفه. وقد يكون الفعل تطوعًا شخصيًا، أو وقع في مرحلة

مخصوصة، أو اختلف أهل العلم في مشروعيتها. تحويله إلى معيار نحاكم إليه الجميع يحتاج إلى دليل زائد، لا إلى زيادة الحماسة.

والهدي النبوي هو الميزان الذي نرجع إليه؛ وقد تقدمت نصوص العزيمة والاقتصاد كاملة في الفصل السابع والعشرين. فلا تقدم شدة مجردة على الاتباع، ولا تجعل حكاية عن غير النبي صلى الله عليه وسلم سبيلًا إلى تجاوز حدوده.

كما أن الخبر عن وجود احتمال عند فرد لا يثبت أن الألم هو الذي صنع فضله. هذه قفزة سببية تشبه أخطاء قراءة البحوث: نرى صفتين اجتمعتا في حياة إنسان فنظن أن إحداها سببت الأخرى. قد يكون لصاحب السيرة علم وبيئة ومساندة وأعمال لا نعرفها. لذلك نكتفي بما يدل عليه الخبر، ولا نحوله إلى تجربة علاجية أو تربوية.

الإنصاف أوسع من التزكية والإسقاط

يمكن أن تحترم عالمًا وتراجع خبرًا أورده، وأن تنتفع بفائدة صحيحة وتترك ما لم يتبين لك. وقد تقدم في الفصل الثلاثين معنى الإنصاف عند النقد. هذه القدرة تحفظ للناس

أقدارهم، وتحفظ للقارئ حقه في المعرفة الصحيحة؛ فلا يضطر إلى تزكية كل شيء أو إسقاط كل شيء.

إذا قال الباحث إن خبراً لم يثبت، فليس ذلك حكماً تلقائياً على نية من أورده أو على صلاح من نسب إليه. وإذا قال إن معنى في النص حسن، فلا يعني أنه صحح الإسناد. ينبغي أن تتضح حدود العبارة حتى لا يستعملها القارئ في غير موضعها.

ويحتاج الإنصاف كذلك إلى التفريق بين القراءة التاريخية والافتداء العملي. نستطيع أن ندرس تصور جماعة عن المجاهدة لفهم عصرها، حتى لو لم نعتمد بعض وسائلها. لكن علينا أن نقول متى نصف ومتى نوصي، وألا يختلط على القارئ أن كل ما روي في فصل تاريخي هو مما ندعوه إلى تجربته.

لا نستعمل القصص لمحاسبة سرائر الناس

قد تتحول الحكاية الوعظية إلى عصا: هذا فلان احتمل كذا، وأنت لا تحتمل أمراً يسيراً؛ إذن إيمانك ضعيف. هذا خطاب يتجاوز ما نعرفه من أحوال المقارنين، ويخلط بين القدرة البدنية والظرف النفسي والحكم على القلب. قد يكون الإنسان

مقصراً فعلاً فيما يقدر عليه، لكن إثبات تقصيره يحتاج إلى واقعه، لا إلى قصة منتقاة عن غيره.

والتربية الأصدق تسأل عما يملكه الآن. هل عرف المطلوب؟ هل تتاح له وسيلته؟ هل تركه باختياره أم عجز عنه؟ هل يحتاج إلى تعلم أو مساندة أو علاج؟ لا تحل هذه الأسئلة جميعاً بمطالبة عامة بمزيد من الاحتمال، كما لا تلغي المسؤولية لمجرد وجود مشقة.

قد يكون أفضل ما نأخذه من سيرة مجاهد لنفسه هو صدقه في الرجوع إلى الحق، لا مقدار الجوع أو السهر في خبر عنه. يجد القارئ في حياته مواقف كثيرة يتعلم فيها الصبر بلا إضرار: قبول تصحيح، أو رد مال، أو حفظ لسان، أو إعادة تعلم مهارة. هذه ليست بدائل قليلة القيمة عن البطولات؛ إنها حقوق حقيقية لا تؤدي بالشعارات.

حين تنقل ما انتفعت به

قد تحب أن تشارك أهلك أو طلابك قصة قرأتها. عد إلى نصها قبل نقلها؛ فإن نقلتها فأثبتتها كاملة كما وردت، ثم ضع تعليقك بعدها. لا تضيف حواراً يجميل المشهد، ولا تحول ما استنبطته إلى كلام للشخصية. يكفي أن تكون العبرة واضحة وصادقة حتى تجد طريقها إلى القلوب.

وإذا كانت حكاية للموعظة لم يتحقق ثبوتها، فاحفظ صيغة مصدرها، وضع التنبيه الموجز في حاشيتها عند الكتابة. لا تستعملها لإثبات حكم أو اعتقاد أو ثواب مخصوص، ولا تنقل موضوعاً أو منكرًا. ويبقى الحديث النبوي محتاجاً إلى التثبت الخاص به؛ فلا تنسب إليه لفظاً لأن معناه أعجبك.

ثم انظر إلى الفائدة التي تدعو إليها: هل تحفظ الحقوق؟ هل تناسب حال من تخاطبه؟ وهل يستطيع أن يراجع خطوته إذا تعثر؟ لا تعده أن يبلغ نتيجة صاحب القصة إذا فعل مثل فعله، فالأحوال والقدرات تختلف. دع العبرة تفتح باباً إلى الخير، دون أن تضيق عليه بما لم يلزمه.

مثال افتراضي: من رسالة متداولة إلى درس أمين

وصلت إلى معلم رسالة تنسب إلى عالم أنه لم ينم إلا قليلاً طوال عقود، وتختتم بأن من ينام نومًا معتادًا لا يصدق في طلب العلم. بحث المعلم في المصدر الذي ذكرته الرسالة فلم يجد اللفظ، ووجد بدلًا منه وصفًا عامًّا لاجتهاد العالم. هنا لا يضيف المعلم إلى الرسالة اسم كتاب آخر ليحسن شكلها؛ يوقف النسبة والنتيجة معًا.

يمكنه أن يصنع درسًا مختلفًا: يذكر خبرًا صحيحًا في المداومة أو حفظ الحقوق، ثم يسأل الطلاب عن مشتت

معروف يضيع وقتهم، ويشرح أن ترك العبث غير حرمان البدن حقه. وإذا أراد الحديث عن العالم، يقتصر على ما ثبت من وصفه، ولا يجعل غموض المقادير فرصة للمبالغة.

ربما كانت الرسالة الأصلية أسرع انتشارًا، لكن الدرس المصحح أوفى بمن سيسمعه. لا يطلب من المتعلم بطولة غامضة؛ يعطيه فرقًا يفهمه وخطوة يستطيع مراجعتها. ومع الأيام يمكن أن يتعلم الطلاب أنفسهم أن يسألوا عن مصدر ما يتداولونه، فيصبح درس واحد في الزهد درسًا في أمانة المعرفة أيضًا.

ختام هدي الأجيال الأولى

وصلنا في هذا المجلد من حدود العبادة وأوقاتها إلى نماذج التعليم والمسؤولية ونقد الأخبار. لم تكن الغاية صناعة ماضٍ مثالي نخجل أمامه من حياتنا، بل تعلم معانٍ يمكن أن تهدي العمل: التهيؤ، والاتباع، وحفظ الحقوق، وصيانة العلم، والرفق الذي لا يضيع الواجب، والعزيمة التي لا تخرج عن حدها.

وحين تبقى هذه المعاني مجتمعة، يصبح الانضباط أكثر من قدرة على احتمال المشقة. إنه قدرة على أن نعرف لماذا نعمل، وما الذي يصح أن ننسبه، وأين ينتهي حقنا في إلزام غيرنا. من هنا ينتقل البحث إلى المعاملة والمجتمع: إلى الوعد الذي يدخل في يوم إنسان آخر، والمال الذي تتعلق به ذمة، والمؤسسة التي ينبغي أن تساعد الناس على الوفاء، لا أن تستهلك قدرتهم ثم تلومهم على غيابها.

الإحالات والمراجع

تجمع هذه القائمة مصادر المجلد، ويَرِدُ توثيق المواضع المنقولة في الحواشي.

محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن

تفسير سورة النساء، الآية ١٠٣؛ معنى «كتابًا موقوتًا» وترجيح الفرض المؤقت
استُعمل لتحرير معنى التوقيت في الآية؛ لا يعني ذلك اعتماد جميع أسانيد
الآثار الواردة في الموضوع حكمًا مستقلًا من فريق الكتاب.

حديث عبد الله بن مسعود

من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب مواقيت
الصلاة، باب فضل الصلاة لوقتها، رقم الحديث ٥٢٧
الحديث يثبت فضل الصلاة على وقتها؛ لا يُحوّل وحده إلى قاعدة أن الدقيقة
الأولى من الوقت هي الأفضل في كل صلاة وكل حال.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب لا
يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم الحديث ٦٣٦
الحديث في المجيء إلى الصلاة عند الإقامة وإتمام ما فات؛ الاستفادة منه في
مبدأ الاستعداد المبكر استنباط تنظيمي لا حكمًا فقهيًا جديدًا.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد
ومواضع الصلاة، باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام الذي يريد أكله في الحال
وكراهة الصلاة مع مدافعة الأخبثين، رقم الحديث ٥٦٠، الرواية أ
يُستعمل لإثبات مراعاة بعض الشواغل البدنية القوية عند الصلاة؛ لا يجعل كل
رغبة في الطعام عذرًا ولا يقدم تفصيلًا فقهيًا لجميع الصور.

حديث مالك بن الحويرث

من حديث مالك بن الحويرث رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب الأذان للمسافر إذا كانوا جماعة، والإقامة، وكذلك بعرفة وجمع، رقم الحديث

٦٣١

يُستعمل لإثبات أصل تعلم صفة الصلاة والاقتداء؛ لا يغني عن كتب الفقه في تفصيل الأركان والواجبات والسنن.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها في الحضر والسفر وما يجهر فيها وما يخافت، رقم الحديث ٧٥٧

الحديث أصل في تعليم صفة الصلاة والطمأنينة؛ هذا الفصل لا يستقل بتفصيل الأحكام الفقهية المستنبطة منه ولا ببيان حد الطمأنينة في كل مذهب.

حديث عمر بن الخطاب

من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة المسافرين وقصرها، رقم الحديث ٦٨٦، الرواية أ يثبت أصل قصر صلاة المسافر وقبول الرخصة بالنص؛ لا يحدد هذا الفصل تفاصيل المسافة والمدة والجمع أو تنزيل الحكم على سفر فرد بعينه.

القرآن الكريم

سورة المائدة، الآية ٦؛ الوضوء والغسل والتيمم وخاتمة رفع الحرج وإرادة التطهير

الآية أصل في الطهارة والتيمم ورفع الحرج في سياقها؛ تفاصيل النواقض والرخص وصور الضرر تُجمع من بقية الأدلة والفقه، ولا تختزل الطهارة في النظافة الصحية.

حديث عثمان بن عفان

من حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، رقم الحديث ٢٢٦، الرواية أ تعلم صفة الوضوء وإتمامه. التطبيق التعليمي لا يحول عدد الإعادات أو كمية الماء إلى حكم على صلاح الشخص.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم الحديث ٢٤٢، الرواية أ يثبت وجوب إتمام الغسل في موضعه؛ لا يبرر التكرار المفتوح بعد استيعاب العضو ولا يجعل شدة الخوف معيارًا لصحة الوضوء.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء بالمد، رقم الحديث ٢٠١ يدل على إمكان إتمام الطهارة بماء محدود؛ لا يحول مقدار المد إلى اختبار إلزامي معاصر بالتترات، ولا تُستنبط منه وحده جميع أحكام الإسراف.

حديث عبد الله بن زيد بن عاصم

من حديث عبد الله بن زيد بن عاصم رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم الحديث ١٣٧ الشك في الحدث في سياق النص؛ ليس كل تكرار تشخيصًا لاضطراب، ولا يغني هذا الأصل عن تفصيل المسألة عند أهل العلم.

المعهد الوطني للصحة النفسية

اضطراب الوسواس القهري

الصفحة الرسمية: تعريف الوسواس والأفعال القهرية وكون الأعراض قد تكون مستغرقة للوقت أو مسببة للضيق أو معيقة للحياة اليومية
مصدر صحي عام للتعريف وحد الإحالة؛ لا يُستخدم لتشخيص القارئ من سلوك واحد، ولا لتقرير حكم شرعي أو تحويل التيسير الفقهي إلى علاج نفسي.

القرآن الكريم

سورة البقرة، الآية ١٨٣؛ فرض الصيام وذكر غاية التقوى
الآية تذكر التقوى غايةً للصيام؛ لا تجعل التقوى مقياسًا سلوكيًا رقميًا ولا تستقل بتفاصيل أحكام الصوم.

محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن

تفسير سورة البقرة، الآية ١٨٣؛ معنى كتب عليكم الصيام وأصل معنى الصيام يستعمل الموضع لتفسير اللفظ والمعنى القريب فقط؛ لا يدعى أنه مراجعة كاملة لخلاف المفسرين أو الفقهاء في أحكام الصيام.

القرآن الكريم

سورة البقرة، الآية ١٨٧؛ الأكل والشرب إلى الفجر وإتمام الصيام إلى الليل وحدود الله
حد بداية الصوم ونهايته. وسائل التذكير تخدم الوقت الشرعي ولا تنشئ وقتًا بديلًا.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب بركة السحور من غير إيجاب، رقم الحديث ١٩٢٣

الحديث في فضل السحور؛ لا يقدم وصفة غذائية أو طبية موحدة ولا يلغي مراعاة الأحوال الصحية.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من لم يدع قول الزور والعمل به في الصوم، رقم الحديث ١٩٠٣
يدل على خطورة قول الزور والعمل به في الصيام؛ لا يستقل بالحكم على صحة الصوم وبطلانه في جميع صور المعصية.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب هل يقول إني صائم إذا شتم، رقم الحديث ١٩٠٤
الصيام وترك الرفث والصخب. لا تُختزل العبادة في تمرين سلوكي أو نتيجة رقمية.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب الصائم إذا أكل أو شرب ناسيا، رقم الحديث ١٩٣٣
الحديث في النسيان تحديداً؛ لا تعمم أحكامه على العمد أو الجهل أو الخطأ وسائر المفطرات بلا فقه.

القرآن الكريم

سورة البقرة، الآية ١٨٥؛ صيام رمضان، المرض والسفر، القضاء واليسر وإكمال العدة
رخص المرض والسفر واليسر في الصيام؛ لا يضع البرنامج حكماً فردياً للحالات الصحية.

حديث جابر بن عبد الله

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي صلى الله عليه وسلم لمن ظلل عليه، واشتد الحر: «ليس من البر الصوم في السفر»، رقم الحديث ١٩٤٦

حديث مرتبط بسياق المشقة الظاهرة في السفر؛ لا يعمم إلى تحريم الصوم على كل مسافر مع وجود نصوص أخرى في الباب.

مصطفى سالاري راد

الحرمان الذاتي والإدراك في رمضان: هل يمكن لممارسة الصيام أن تحسّن التحكم التثبيطي؟

الدين والدماغ والسلوك ١٦(٣): ٢٣٤-٢٥٩؛ نشر إلكتروني ١٦ يونيو ٢٠٢٥؛ سنة ٢٠٢٦؛ نشر إلكتروني ٢٠٢٥

دراسة غير عشوائية على الصيام، تقيس مهمة تثبيطية محددة؛ لا تثبت التقوى ولا انتقال التحسن تلقائيًا إلى بقية السلوك، واستمرار الأثر غير محسوم.

مصطفى سالاري راد؛ مرتضى أنصاري؛ إدار شافير

قد يضعف الحرمان الذاتي المؤقت التحكم المعرفي: أدلة من صيام رمضان

ملخص قاعدة بيمد؛ نشرة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي ٤٩(٣): ٤١٥-٤٢٨؛ سنة ٢٠٢٣

يقيس أثر جعل الطعام بارزًا على مهمة تحكم معرفي لدى صائمين في ظروف محددة؛ لا يثبت ضرر الصيام عمومًا ولا يقيس قيمة العبادة أو التقوى.

القرآن الكريم

سورة الأحزاب، الآيتان ٤١-٤٢؛ الأمر بذكر الله كثيرًا والتسبيح بكرة وأصيلًا

يثبت أصل كثرة الذكر وذكر البكرة والأصيل؛ لا يثبت من نفسه عددًا مخصوصًا لكل ذكر مطلق ولا يجعل كثرة العدد مقياسًا للتقوى.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته، رقم الحديث ٥٩٧، الرواية أ

ذكر مقيد ثبت عدده في النص. هدف القراءة الشخصي أو توقيت مراجعة البرنامج لا يكتسب هذه الصفة.

حديث أبي أمامة الباهلي

من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن وسورة البقرة، رقم الحديث ٨٠٤، الرواية أ

يثبت فضل قراءة القرآن وما ورد في السور المذكورة في الحديث؛ لا يحدد من نفسه مقداراً يومياً موحداً لجميع الناس.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب في كم يقرأ القرآن، رقم الحديث ٥٠٥٤
لل قصة روايات وألفاظ أخرى في مدد الختم؛ لا يُجعل هذا اللفظ وحده حدًا فقهياً عامًا لكل قارئ دون جمع النصوص وكلام أهل العلم.

حديث عمر بن الخطاب

من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث ٧٤٧

استدراك الحزب الذي فات بالنوم في الوقت المذكور؛ لا يوسع النص إلى جميع أحكام القضاء بلا دليل.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب القصد والمداومة على العمل، رقم الحديث ٦٤٦٤
أصل القصد والمداومة؛ لا يحدد الحديث مدة اثني عشر أسبوعًا أو نسبة نجاح رقمية.

القرآن الكريم

سورة المزمل ١-٤؛ الأمر بقيام الليل وترتيل القرآن
استعمل في أصل قيام الليل والمجاهدة؛ لا لإثبات بقاء مقدار صدر السورة واجبًا على كل مسلم.

القرآن الكريم

سورة المزمل ٢٠؛ التخفيف وذكر المرض والسفر وقراءة ما تيسر
استعمل في اعتبار القدرة والأحوال ضمن سياق السورة؛ لا لإلغاء المقادير الشرعية في أبواب أخرى.

القرآن الكريم

سورة الفرقان ٦٤؛ يبيتون لربهم سجدًا وقيامًا
يثبت وصف عبادة الليل؛ لا يحدد عددًا أو ساعات موحدة.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الوضوء، باب الوضوء من النوم ومن لم ير من النعسة والنعستين أو الخفقة وضوء، رقم الحديث ٢١٢

في غلبة النعاس واضطراب الإدراك؛ لا يجعل كل تناقل عذرًا لتترك القيام.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب ما يكره من التشديد في العبادة، رقم الحديث ١١٥٠
يمنع إجبار البدن على استمرار النافلة بهذه الصورة؛ لا يعني أن كل تعب يوجب التوقف.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب التهجد، باب من نام عند السحر، رقم الحديث ١١٣١
لا يفرض التقسيم الزمني المذكور على جميع الناس.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم الحديث ١٩٧٥
في موازنة النافلة بالحقوق؛ لا ذريعة لترك المجاهدة.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب صلاة الليل وعدد ركعات النبي صلى الله عليه وسلم في الليل وأن الوتر ركعة وأن الركعة صلاة صحيحة، رقم الحديث ٧٣٨، الرواية أ
استعمل لانتظام العمل؛ لا لحسم الخلاف الفقهي في أعداد القيام.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره، رقم الحديث ٧٨٣، الرواية ب
في أصل المداومة؛ لا لتفضيل القليل على الكثير بإطلاق.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب جامع صلاة الليل ومن نام عنه أو مرض، رقم الحديث ٧٤٦، الرواية هـ

هدي نبوي في الاستدراك؛ لا يعمم العدد على كل برنامج شخصي.

القرآن الكريم

سورة التوبة: ١٠٣

صلة الزكاة بالتزكية، دون قياس قبول العبادة.

القرآن الكريم

سورة التوبة: ٦٠

مصارف الزكاة المحددة في الآية. ورقة جمع الوقائع لا تقوم مقام الفتوى أو حساب الزكاة المتخصص.

حديث عبد الله بن عباس

من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب وجوب الزكاة، رقم الحديث ١٣٩٥؛ من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب لا تؤخذ كرائم أموال الناس في الصدقة، رقم الحديث ١٤٥٨
مقابلة الروايتين مع الفصل بين ألفاظهما؛ النهي عن أخذ كرائم الأموال في ١٤٥٨.

حديث أبي سعيد الخدري

من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب زكاة الورق، رقم الحديث ١٤٤٧

التحقق المباشر في هذه الجولة من البخاري ١٤٤٧؛ تعذر فتح إحالة مسلم الفرعية، فلا يدعى تحقق مستقل منها.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب زكاة الغنم، رقم الحديث ١٤٥٤

ربع العشر في الرقة في موضعه؛ لا تعميم مستقل على كل أداة مالية معاصرة.

القرآن الكريم

سورة الأنعام: ١٤١

حق الخارج من الأرض يوم حصاده في الآية، لا استيعاب شروط زكاة الزروع.

حديث عبد الله بن عمر

من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب العشر فيما يسقى من ماء السماء وبالماء الجاري، رقم الحديث ١٤٨٣
العشر ونصف العشر بحسب صورة السقي في محل الحديث.

حديث علي بن أبي طالب

من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ سنن أبي داود، كتاب الزكاة، باب في زكاة السائمة، رقم الحديث ١٥٧٣
في النص اختلاف النقل في بعض ألفاظ الرفع؛ حفظت قيود المسودة، ولا يدعى حكم مستقل على الإسناد.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ٢٦٧

الإنفاق من الطيبات، لا تفصيل جميع أحكام إخراج الأعيان أو القيمة.

القرآن الكريم

سورة الحج: ٢٧-٣٢، خاصة ٢٧ و ٣٢
تعظيم الشعائر دون اختزال التقوى في الظاهر.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ١٩٦
إتمام الحج والعمرة لله؛ لا استيعاب بقية الأحكام في الآية.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ١٩٧
الزمان وحفظ السلوك في الحج.

القرآن الكريم

سورة الحج: ٣٦-٣٧
التفريق بين صورة الشعيرة والتقوى، دون نفي أهمية الامتثال.

حديث جابر بن عبد الله

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب ما
جاء أن عرفة كلها موقف، رقم الحديث ١٢١٨، الرواية ج
سعة منى وعرفة وجمع في الرواية المختارة؛ لا استيعاب مناسك الحج.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ١٩٨-١٩٩ و ٢٠٣
أثبتت الآيات المستشهد بها كاملة؛ لا دليل مناسك كامل.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الحج، باب فضل الحج المبرور، رقم الحديث ١٥٢١
فضل الحج مع ترك الرفث والفسوق؛ لا حكم على قبول حج شخص بعينه.

حديث جابر بن عبد الله

من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الحج، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكباً وبيان قوله صلى الله تعالى عليه وسلم: «لتأخذوا مناسككم»، رقم الحديث ١٢٩٧
أصل تعلم المناسك من النبي ﷺ. تنظيم الاستعداد ليس دليلاً فقهياً شاملاً أو بديلاً عن تعليمات الجهات المختصة.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الحج، باب الفتيا على الدابة عند الجمرة، رقم الحديث ١٧٣٦
الرواية المختارة تثبت السعة في الصور المذكورة؛ لا تعميم على كل ترتيب.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي - صلى الله تعالى عليه وسلم - "من غشنا فليس منا"، رقم الحديث ١٠٢
لا إضافة لمكان محدد أو نية باطنة لصاحب الطعام.

القرآن الكريم

سورة العنكبوت: ٤٥

صلة الصلاة بالنهي عن الفحشاء والمنكر، لا حكم على الأعيان.

عبد الرحمن السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان

تفسير سورة العنكبوت: ٤٥

تلخيص تفسيره لا نقل أخبار مختلف فيها من تفسير آخر.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ١٧٧

اجتماع الإيمان والعبادات والوفاء والصبر في آية البر.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب،

باب تحريم الظلم، رقم الحديث ٢٥٨١

التحذير من الاعتداء على الحقوق، لا تعيين المصير لأشخاص.

المجلس القومي للبحوث

كيف يتعلم الناس: الدماغ والعقل والخبرة والمدرسة — الطبعة الموسعة

الفصل الثالث: التعلّم وانتقال أثره، ص ٥١-٧٨؛ خاصة ٦٢-٦٣ و ٧٧-٧٨؛ سنة

٢٠٠٠

قُرئت مباحث السياق والانتقال وخلاصة الفصل. التدرب في موقف قريب ثم

مختلف اقتراح تعليمي مستفاد من هذه المبادئ، لا دليل على انتقال أثر العبادة

تلقائيًا أو ثبوت هذا البرنامج.

ويندي وود؛ ليونا تام؛ ميليسا غيريرو ويت

تغيّر الظروف وتعطّل العادات

مجلة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ٨٨(٦)، ٩١٨-٩٣٣؛ الطريقة،

ص ٩٢١ والمناقشة، ص ٩٢٩-٩٣١؛ سنة ٢٠٠٥

دراسة رصدية قائمة على تقارير طلاب منتقلين إلى جامعة؛ لا سببية محسومة ولا قياس لأثر العبادات.

بيتر إم. غولويتزر؛ فيرونيكا براندشتاتر

نوايا التنفيذ والسعي الفعّال إلى الأهداف

مجلة علم نفس الشخصية وعلم النفس الاجتماعي، ٧٣(١)، ١٨٦-١٩٩؛ الدراسة الثانية، ص ١٩١-١٩٢؛ سنة ١٩٩٧

استُفيد من طريقة الدراسة الثانية ونتائجها ومناقشتها، لا من تجربة البرنامج الحالي. خطط «إذا وقع كذا فسأفعل كذا» أمثلة تطبيقية مقترحة وليست ضماناً للتنفيذ في كل سياق.

القرآن الكريم

سورة النساء: ٥٨

أداء الأمانات والحكم بالعدل أصلاً حاكمان؛ لا تمنح مؤشرات البرنامج حقاً في الظلم أو كشف الأسرار.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره، رقم الحديث ٦٠١٨
ضبط القول بالخير أو السكوت. لا يجعل التمرين السكوت عن حق لازم أو خطر قائم فضيلة مطلقة.

القرآن الكريم

سورة المائدة: ٨

العدل ولو مع وجود نفور. لا يبرر خلاف المشاركين انتقاء النتائج أو إهمال حقوق أحدهم.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب من كانت له مظلمة عند الرجل فحلها له، هل يبين مظلمته، رقم الحديث ٢٤٤٩ التحلل من المظالم؛ إصلاح حق الغير مقدم على تجميل سجل الأداء. تفاصيل الإصلاح قد تحتاج سؤال أهل العلم.

حديث أبي هريرة

من حديث أبي هريرة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب في الاستقراض، باب مطل الغني ظلم، رقم الحديث ٢٤٠٠ لا يدل هذا المصدر وحده على جميع جوانب الانضباط.

القرآن الكريم

سورة البقرة: ٢٨٠

إنظار المعسر؛ لا يوجه المتدرب إلى مطالبة ضارة أو حكم مالي فردي من المثال العام.

القرآن الكريم

سورة الأحزاب، الآية ٢١، الاقتداء برسول الله ﷺ

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث جابر بن سمرة

من حديث جابر بن سمرة رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل الجلوس في مصلاه بعد الصبح وفضل المساجد، رقم الحديث ٦٧٠، الرواية أ

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث عبد الله بن مسعود

من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث ٦٨

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا، رقم الحديث ٦٩

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث أم سلمة

من حديث أم سلمة رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب إثم من خاصم في باطل وهو يعلمه، رقم الحديث ٢٤٥٨

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث عائشة أم المؤمنين

من حديث عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب كيف يكون الرجل في أهله، رقم الحديث ٦٠٣٩

الخبر يصف فعل النبي ﷺ في بيته وانتقاله للصلاة عند حضورها؛ الاستفادة التربوية من مشاهدة الصغير لهذا النمط استنباط تطبيقي لا لفظ الحديث.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب حسن الخلق، والسخاء، وما يكره من البخل، رقم الحديث ٦٠٣٨ لا يدل هذا المصدر وحده على جميع جوانب الانضباط.

حديث عمر بن الخطاب

من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب التناوب في العلم، رقم الحديث ٨٩ لا يدل هذا المصدر وحده على جميع جوانب الانضباط.

القرآن الكريم

سورة القصص، الآية ٢٦، القوة والأمانة التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث أبي ذر الغفاري

من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث ١٨٢٥؛ من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم الحديث ١٨٢٦

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث أبي جحيفة

من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب من أقسم على أخيه ليفطر في التطوع ولم ير عليه قضاء، إذا كان أوفق له، رقم الحديث ١٩٦٨

حفظ حقوق الرب والنفس والأهل. لا تجوز مزاحمة الحقوق الواجبة باسم البرنامج.

حديث أنس بن مالك

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم الحديث ٥٠٦٣
التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث حنظلة الأسدي

من حديث حنظلة الأسدي رضي الله عنه؛ صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب فضل دوام الذكر والفكر في أمور الآخرة والمراقبة وجواز ترك ذلك في بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا، رقم الحديث ٢٧٥٠، الرواية أ
التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

حديث عبد الله بن عمرو بن العاص

من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما؛ صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب حق الجسم في الصوم، رقم الحديث ١٩٧٥
لا يدل هذا المصدر وحده على جميع جوانب الانضباط.

محمد بن سيرين، مقدمة صحيح مسلم

باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٢٦

هذه آثار في مقدمة مسلم، لا تُسمى جميعها أحاديث نبوية. الصفحة وترقيم الأثر مختلفان بواحد في بعض مواضع الموقع؛ الرقم المثبت هنا رقم الأثر.

محمد بن سيرين، مقدمة صحيح مسلم

باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرومة، الأثر رقم ٢٧

هذه آثار في مقدمة مسلم، لا تُسمى جميعها أحاديث نبوية. الصفحة وترقيم الأثر مختلفان بواحد في بعض مواضع الموقع؛ الرقم المثبت هنا رقم الأثر.

أبو الزناد، مقدمة صحيح مسلم

باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرومة، الأثر رقم ٣٠

هذه آثار في مقدمة مسلم، لا تُسمى جميعها أحاديث نبوية. الصفحة وترقيم الأثر مختلفان بواحد في بعض مواضع الموقع؛ الرقم المثبت هنا رقم الأثر.

مالك بن أنس، مقدمة صحيح مسلم

باب النهي عن الحديث بكل ما سمع، الأثر رقم ١٠
قول لمالك محفوظ في مقدمة مسلم؛ لا ننسبه إلى النبي ﷺ ولا نجعله تحقيقاً مستقلاً لأسانيد جميع المواد.

أبو مسعود الأنصاري وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنهما، الموطأ

كتاب وقوت الصلاة، باب وقوت الصلاة، الروايتان ١ و ٢
تتفاوت الأخبار بين المسند والمرسل والبلاغ؛ لا يُحكم بصحة الجميع من مجرد وجودها في الموطأ. المقصود هنا ملاحظة بنية التعليم والضبط، لا استخراج ترتيب يوم تاريخي متخيل.

محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء

ترجمة عبد الله بن المبارك، ٣٧٩/٨-٣٨٣، افتتاح الترجمة والتعريف بمجالاته

الذهبي مصدر ترجمي لاحق؛ تفصل شهادته التجميعية عن الأخبار المفردة المسندة، ولا تنسب تفاصيل الحكايات غير المتحققة بصيغة الجزم.

عبد الله بن المبارك، مقدمة صحيح مسلم

باب في أن الإسناد من الدين وأن الرواية لا تكون إلا عن الثقات وأن جرح الرواة بما هو فيهم جائز بل واجب وأنه ليس من الغيبة المحرمة بل من الذب عن الشريعة المكرمة، الأثر رقم ٣٢

هذه آثار في مقدمة مسلم، لا تُسمى جميعها أحاديث نبوية. الصفحة وترقيم الأثر مختلفان بواحد في بعض مواضع الموقع؛ الرقم المثبت هنا رقم الأثر.

عبد الله بن المبارك، مقدمة صحيح مسلم

باب الكشف عن معاييب رواة الحديث ونقله الأخبار وقول الأئمة في ذلك، الأثر رقم ٣٨

هذه آثار في مقدمة مسلم، لا تُسمى جميعها أحاديث نبوية. الصفحة وترقيم الأثر مختلفان بواحد في بعض مواضع الموقع؛ الرقم المثبت هنا رقم الأثر.

حديث أنس بن مالك؛ حديث أبي سعيد الخدري

من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب من أعاد الحديث ثلاثا ليفهم عنه، رقم الحديث ٩٥؛ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه؛ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب هل يجعل للنساء يوم على حدة في العلم، رقم الحديث ١٠١

التطبيق الإداري أو التربوي استنباط المؤلف؛ لا يستخرج من النص وحده برنامج معاصر أو حكم تفصيلي لكل واقعة.

محمد بن سحنون، آداب المعلمين

نص الرسالة الملحق بكتاب التربية في الإسلام لأحمد فؤاد الأهواني؛ أبواب تعليم القرآن وأجرة المعلم والتعليم والإشراف

مصدر تربوي تاريخي من القرن الثالث، وليس تقويماً تجريبياً. وجود عقوبات أو تمييز تاريخي أو روايات في النص لا يعني إقرارها أو ثبوت جميع أسانيدھا؛ لم تُحوّل إلى تعليمات تدريبية في السلسلة.